روايات جائزة نوبل

2

أرنست هيمنجواى

العجوز والبحر

4.8.2017

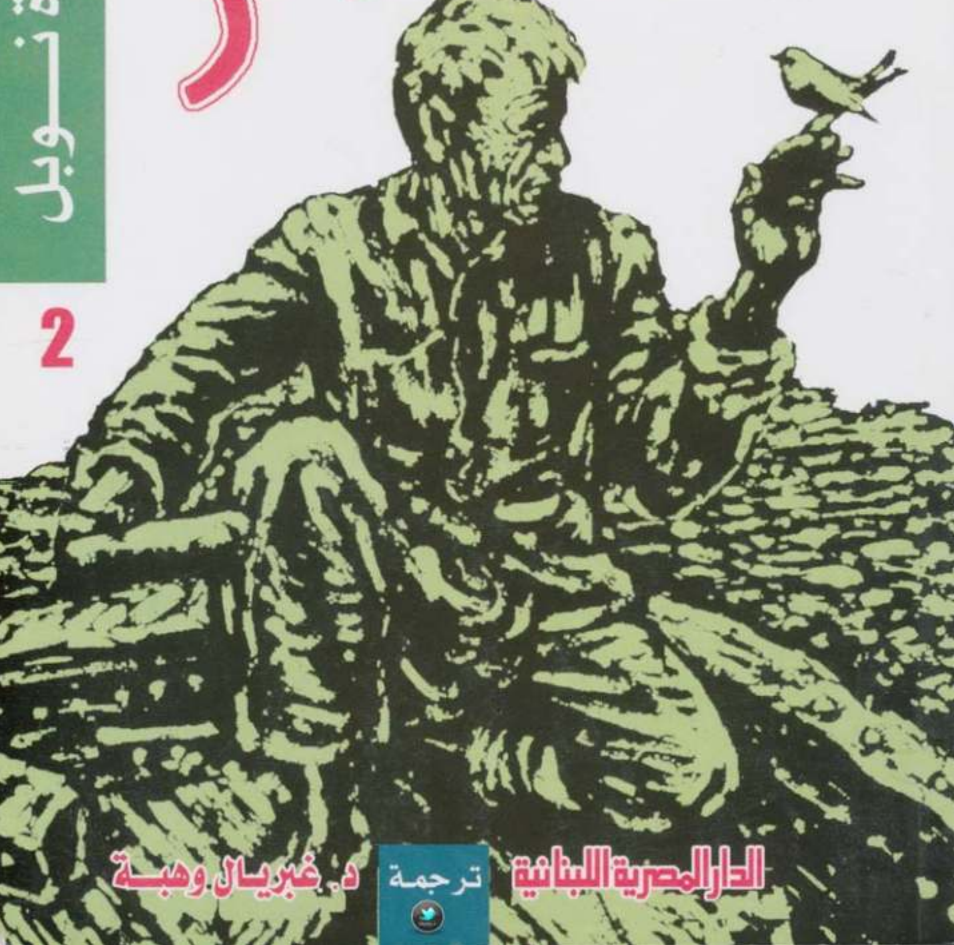

الدار المصرية اللبنانية

ترجمة

د. غبريال وهبة

العجوز والبحر

THE OLD MAN AND THE SEE

آرنست هيمنجواى

نوبل / 1952

ترجمة دكتور غبريال وهبه

روايات جائزة نوبل

2

روايات جائزة نوبل
سلسلة تصدرها

©

الدار المصرية اللبنانية
المدير العام : محمد رشاد
رئيس التحرير : فتحي العشري
الإعداد والصياغة : محمد فتحي

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 2744 / 1994
الترقيم الدولى : 8 - 130 - 270 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الرابعة : رمضان 1428هـ ـ أكتوبر 2007م
الطبعة الخامسة : صفر 1430هـ ـ فبراير 2009م

القسم الأول

كان رجلاً أخذته الشيخوخة يعمل بالصيد وحده فى مركب شراعى صغير فى مجرى الخليج. لم يظفر حتى الآن بأية سمكة منذ أربعة وثمانين يوماً مضت.

وفى الأيام الأربعين الأولى كان يرافقه صبى، بيد أنه بعد مرور أربعين يوماً بلا صيد تبرم والدا الصبى يقولان له: إن الرجل العجوز لا شك قد أصابه النحس، وهذا أسوأ ما يُبتلى به إنسان من حظ سيئ. انصاع الصبى للأوامر، فذهب يعمل فى مركب آخر، وفاز من أول أسبوع بثلاث سمكات من الأنواع الضخمة.

نشب كبد الصبى لوعة حزن وهو يرى العجوز يجيء كل يوم بمركبه خاوياً، وكان دائماً ما يذهب إليه ليعاونه فى حمل لفات الحبال والأسلاك أو خطاف رفع الأسماك والرمح المستخدم فى طعنها، أو الشراع الملفوف حول صارى المركب.. كان الشراع المرقع بقطع قماش من أكياس الدقيق يبدو وهو ملفوف كأنه علم للهزيمة والإحباط، والخيبة المستمرة الدائمة.

كان الرجل العجوز نحيلاً تنتشر التجاعيد عميقة فى أنحاء وجهه. وقد ظهرت على وجنتيه بقع سمراء من سرطان الجلد الحميد الناشئ من انعكاس أشعة الشمس على مياه البحر فى هذه المنطقة الاستوائية.. امتدت

النمش(١) على جانبي وجهه بشكل واضح ، وبدت على يديه ندوب عميقة من جراء تعامله مع الأسماك الثقيلة ؛ وتفسخها بالحبال . لم يكن هناك ندباً واحد حديث ، إذ كانت الندوب جميعها قديمة مثل الشكل الذي تحدثه عوامل التعرية في صحراء جدباء لا تعرف الأسماك .

كل شيء فيه يتصف بالقدم ، ما عدا عينيه اللتين كانتا بنفس لون البحر ، ويطل منهما المرح وعدم اليأس .

وبينما كانا يتسلقان الضفة المنحدرة ، حيث سحب المركب وألقيا مراسيه هناك : قال له الصبي :

- سانتياجو . . يمكنني أن أرافقك . وأعمل معك مرة أخرى . لقد حصلت على بعض النقود .

كان العجوز قد علّم الصبي كيف يصطاد الأسماك ، وقد تعلق الغلام به وأحبه .

فقال له العجوز :

- كلا .

ثم استطرد قائلاً :

- أنت تعمل في مركب ابتسم الحظ لأصحابه . امكث معهم .

- لكن تذكر كيف ظللت فيما مضى سبعة وثمانين يوماً بدون أن يجود علينا البحر بشيء ، ثم اصطدنا أسماكاً ضخمة كل يوم طوال ثلاثة أسابيع؟

---

(١) النمش : نقط الجلد .

قال العجوز :

- نعم أذكر ذلك .

ثم أضاف :

- أعرف أنك لم تتركني بسبب ارتيابك في عمل غير مؤكد ، يعود بنتائج مضمونة .

- إن أبي هو الذي جعلني أتخلى عنك ، وأنا صبي يجب علي أن أطيعه .

فقال العجوز :

- أعرف .. هذا شيء طبيعي تماماً

- إنه ليس على قدر كبير من الإخلاص والوفاء بالعهد .

قال العجوز :

- كلا .. ولكننا نتحلى بالإخلاص والوفاء ، أليس كذلك ؟

فقال الصبي :

- نعــم .

وواصل حديثه :

- أيمكنني أن أقدم لك قدحاً من الجعة في تشرفة (كانت محلاً وحانة عن قطعة من الأخشاب شبه مستوية في حافة البحر) ثم نأخذ المعدات إلى البيت .

فقال العجوز :

- ولم لا ؟ إننا صيادون من أبناء مهنة واحدة

جلسا في الشرفة ، وسخر كثير من الصيادين ساخرين من العجوز ، ولم يثر ذلك غضبه . ونظر إليه قدامى الصيادين في أسى وحزن . بيد أنهم لم يظهروا ذلك ، وتحدثوا بأدب عن التيار الذي يجرف شباكهم وحبالهم في الأعماق ، وعن الطقس الجيد ، وعما شاهدوه في رحلتهم مع البحر.

كان الصيادون الذين عادوا بصيد طيب في ذلك اليوم على أهبة الاستعداد بعد أن أفرغوا مراكبهم من أسماك «المرلين» المخصصة لإعدادها للبيع : ونقلوها ممددة بطولها على ألواح من الخشب ، حيث نقلها الرجال وساروا بها وهم يترنحون ذات اليمين وذات اليسار إلى بيت الأسماك في انتظار الشاحنة الثلاجة الكبيرة لتحملها إلى السوق في «هافانا» .

أما أولئك الذين اصطادوا أسماك القرش : فقد مضوا بها إلى مصنع «القرش» في الناحية الأخرى من الخليج الصغير : حيث يرفعونها بمجموعة من الحبال والبكرات لترتفع فوق كتلة خشبية ، وتنزع أكبادها ، وتفصل زعانفها : وتسلخ جلودها ، وتقطع لحومها إلى شرائح لتمليح .

وحين تهب الريح من الشرق فإنها تحمل معها عبر الميناء تلك الرائحة المنبعثة من مصنع «القرش» .

ولم يكن هناك في ذلك اليوم سوى رائحة ضعيفة ، حيث غيرت الريح اتجاهها متجهة صوب الشمال ، ثم تضاءلت تدريجياً ، فكان الجو مشمساً لطيفاً ومشرقاً في الشرفة .

نادى الصبي العجوز :

- سنتياجو .

كان العجوز ممسكاً بقدحه وهو يحتسي الشاي ، سابحاً بخياله عبر ذكريات عمره الماضية التي مضت ، ثم قال :

- نعم .

- أيمكنني أن أذهب لأحضر لك بعض السردين من أجل الغد ؟

- كلا .. اذهب والعب البيسبول .. أنت ما زلت قادراً على التجديف ، وسيلقي روجيليو بالشباك .

- وددت أن أذهب لأجيئك بالسردين ، وإذا كان لا يمكنني أن أصطاد معك فلا أقل من أن أخدمك بطريقة ما !

فقال العجوز :

- لقد اشتريت لي قدحاً من البيرة .

وأضاف قائلاً :

- لقد أصبحت الآن رجلاً .

استفسر الصبي قائلاً :

- كم كان عمري حين أخذتني في الزورق لأول مرة ؟

- خمسة أعوام ، وكدت تلاقي مصرعك عندما قفزت بسمكة ضخمة مفعمة بالحيوية والقوة ، وأوشكت أن تحطم الزورق إلى شظايا .. أيمكنك أن تتذكر ؟

- ما زلت أذكر أن ذيلها راح يضرب بعنف ، وتوجه لها بمجدافه ونطحته بقوة ، وبعدها ضجة مدوية ، وبالقارب ألواحه تتساقط تحت وطأة ضرباته .

مرارتك . وأذكر حين ألقيت بي في مقدمة المركب حيث كانت لفات الحبال المبتلة قابعة هناك ، وشعرت بالمركب بأجمعه يهتز ويرتجف ، وسمعت الضجيج عالياً وأنت تضرب السمكة بهراوتك كأنما توجه ضربات عنيفة متكررة بالفأس نحو شجرة لتقطعها ، وكانت رائحة الدم تملأ المكان حولي .

- أتتذكر ذلك حقاً ، أم تراه مجرد ما رويته لك ؟

- بل أتذكر كل شيء منذ أول مرة خرجنا فيها معاً .

تطلع إليه العجوز بعينيه اللتين لفحتهما الشمس (1) وتطل منهما الجرأة والثقة بالنفس والحنان ، وقال :

- لو أنك كنت ابني لاصطحبتك لنبحر معاً .

ثم استطرد :

ولكنك تنتمي لأبيك وأمك ، وتعمل في مركب جالب للحظ الحسن .

- هل أجيئك بالسردين ؟ إنني أعرف من أين آتيك بأربعة من طعم الأسماك أيضاً .

- لدي ما تبقى منه اليوم . لقد وضعته في الملح داخل الصندوق .

- دعني أزودك بأربع قطع من الطعم الطازج .

قال العجوز :

- بل قطعة واحدة .

---

(1) لفحتهما الشمس : جعلتهما أسمرا

لم يفقد الرجل الأمل والثقة فقط ، بل لقد أدهشني هبوب النسيم العليل.

تبرّم الصبي قائلاً :

ـ أخفقنا اثنين .

رفق الرجل العجوز .

ـ ألن تسيّرنا ؟

فقال الصبي :

ـ لا تترتب عليك إذا صرفتها من أجلك . ولكنني سأقترضها .

قال العجوز :

ـ أشكرك

كان الرجل من البساطة والتواضع حتى لم يثر ذلك دهشته ، ولم يكن الأمر مخزياً بالنسبة له ، ولم يجد فيه ما يمس كبرياءه .

ثم قال :

ـ هذا التيار يبشر بطقس طيب .

فسأله الصبي :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

ـ سأذهب بعيداً لأعود مع الرياح حين تغير اتجاهها . أريد أن أغادر البحر قبل أن يبدأ الفجر نسمته الدافئة .

عندئذ قال العجوز :

ـ سأحاول أن أجد الذي تحمل معه يذهب بعيداً .

ثم أكمل حديثه قائلاً :

ـ حتى إذا أمسكت بصيد ضخم يمكننا أن نخرج إليك لمعاونتك .

ـ ولكن صاحبك لا يحب أن يتوغل بعيداً في البحر .

فقال الصبي :

ـ أجل .

ثم أردف :

ـ ولكني سأرى شيئاً لا يستطيع أن يراه مثل طائر بحري يتعقب فريسته في البحر ؛ ويمكنني أحمله على الخروج بعيداً سعياً وراء الدولفين .

ـ هل عيناه من الضعف إلى هذا الحد ؟

ـ نعم ، بل يكاد يكون أعمى .

فقال العجوز :

ـ هذا غريب .

ثم أضاف .

ـ إنه لم يسع أبداً بنفسه وراء السلاحف ، وهذا هو الذي يطفئ نور العينين .

ـ ولكنك ظللت تصطادها عبر شاطئ البعوض لسنوات عديدة ، ولم تزل عيناك سليمتين

ـ إنني عجوز متعب .

ـ ولكنك ، ما زلت قوياً حتى الآن كي تصطاد سمكة ضخمة !

ـ أعتقد ذلك ، وهناك حيل عديدة .

ـ قال الصبي .

ـ دعنا نأخذ متاعنا إلى البيت .

ثم قال :

ـ وهكذا يمكنني أن آخذ الشبكة الصغيرة لأخرج ابتغاء صيد السردين .

ثم التقط المعدات من المركب .

حمل العجوز الصاري فوق كتفه ، وحمل الصبي الصندوق الخشبي وبه الخيوط الملتفة المجدولة ذات اللون البني ، والخطاف والرمح بمقبضه . أما الصندوق المحتوي على الطُّعْم فقد كان عند مؤخرة المركب ، ووضعت إلى جانبه الهراوة التي كانت تستخدم لإخضاع الأسماك الكبيرة وقهرها .

ومع أن أحداً لن يسرق من العجوز شيئاً ، فإنه كان من الأفضل نقل الشراع والحبال الثقيلة إلى البيت ، لأن الندى يُنزل أضراراً بها .

أما الخطاف والرمح فقد كانا لا يغريان أحداً بالاستحواذ عليهما إذا ما تركهما في المركب ، غير أن الرجل نقلهما إلى البيت برغم أنه كان واثقاً تماماً من أن السكان المحليين لن تمتد أيديهم إليه لتسرقه .

ساراً في الطريق معاً ، وصعدا إلى الكوخ الذي يقع في الرمل العميق ، ودلفا من بابه المفتوح .

أنزل العجوز الصاري الذي يلتف حوله الشراع ، وأسنده إلى الجدار ، ووضع الصبي الصندوق والمعدات الأخرى بجانب الصاري الذي كان يقارب في امتداده طول الحجرة الوحيدة التي يتكون منها الكوخ .

كان الكوخ مصنوعاً من جذوع أشجار النخيل الملكي الصلبة لتقارب لونها إلى الأرض ، ويوجد بداخله سرير ، ومائدة ، ومقعد واحد ، ومساحة صغيرة من الأرض مكسوة بتراب يطهو العجوز فوقها طعامه على الفحم النباتي . أما الحوائط الخشبية البنية فقد كانت مكسوة بألياف متشابكة من سعف النخيل ، وعلق فوقها صورة ملونة للقلب المقدس ، وأخرى للعذراء ، وكانتا بقايا تذكارية من زوجته التي غادرت دنياه ، وفيما مضى كانت هناك صورة ذات ألوان باهتة معلقة على الحائط ، غير أنه أنزلها من فوق الجدران ، لأنه كلما نظر إليها كانت تحمل إليه إحساساً بالوحدة وبغربة الوحشة ، ووضعها على رف في ركن خلف قميصه النظيف .

سأله الصبي :

ـ ماذا عندك تأكله ؟

ـ وعاء من الأرز الأصفر بالسمك . هل لك في نصيب منه ؟

ـ كلا ، سآكل في بيتي . هل أوقد لك النار ؟

ـ كلا ، سأوقدها بنفسي فيما بعد ، أو ربما أتناول الأرز بارداً .

ـ هلا سمحت لي بأخذ الشبكة الصغيرة ؟

ـ بلا ريب .

لم تكن هناك شبكة صغيرة ، والصبي مازال يذكر متى باعوها ، غير أنه كان يروق لهما أن يقوما بهذه التمثيلية كل يوم متخيلين أنها مازالت موجودة . كما لم يكن هناك وعاء من الأرز الأصفر بالسمك ، وكان الصبي يعلم ذلك أيضاً . تذكر العجوز أن غداً سيكون اليوم الخامس والثمانين الذي يمضي بدون أن يظفر بصيد ، فقال للصبي :

ـ خمسة وثمانون . رقم يجلب الحظ !

ثم أكمل حديثه قائلاً :

ـ أتحب أن تراني أحصل على سمكة يفوق وزنها ألف رطل ؟

قال الصبي :

ـ سآخذ الشبكة الصغيرة وأمضي طلباً للسردين . وأنت هلا جلست في الشمس أمام مدخل الكوخ ؟

ـ نعم ، معي جريدة الأمس ، وسأقرأ صفحة « البيسبول » .

لم يكن الصبي يعلم ما إذا كانت جريدة الأمس حقيقة أم أنها مجرد خيال أيضاً ، ولكن العجوز أخرجها من تحت الفراش وقال مفسراً :

ـ لقد أعطاني « بيريكو » إياها في الحانة .

فقال الصبي :

ـ سأعود عندما أحصل على السردين ، وسأحتفظ بنصيبك ونصيبي معاً

في الثلج ، ويمكنك أن تتفحصها في الصباح ، وحين أعود تستطيع أن تخبرني بأنباء « البيسبول » .

ـ إن فريق « اليانكي » لا يمكن أن ينهزم .

ـ ولكني أخشى عليه من هنود « كليفلاند » .

ـ كن واثقاً يا بني « باليانكي » وفكّر في « دي ماجيو » العظيم .

فقال الصبي :

ـ أخشى من نمور « ديترويت » وهنود « كليفلاند » .

ـ كن يقظاً وإلا ستخشى أيضاً من حُمر « سينسيناتي » وبيض « شيكاجو » .

ـ ادرس ذلك وأخبرني حين أعود .

وقاطعهُ العجوز بقوله :

ـ أتظن أن علينا أن نشترى ورقة يانصيب تنتهى برقم خمسة وثمانين ؟ فغداً هو اليوم الخامس والثمانون .

قال الغلام :

ـ يمكننا أن نفعل ذلك .

ثم استدرك قائلاً :

ـ ولكن ماذا عن رقم سبعة وثمانين الذى سجلت فيه رقمك القياسى في الصيد ؟

ـ هذا لا يحدث مرتين في حياة الإنســان . هل تعتقد أنك يمكنك العثور على ورقة يانصيب تنتهي برقم خمس وثمانين ؟

ـ أستطيع أن أطلب واحدة .

ـ ورقة واحدة ثمنها دولاران ونصف ، فممن نقترض ذلك المبلغ ؟

ـ هذا سهل ميسور ، فيمكنني دائماً أن أقترض دولارين ونصفاً .

ـ وإني أستطيع ذلك أيضاً ، غير أنني لا أحاول أن أقترض ، ففي أول الأمر تقترض ثم لا تلبث أن تتسول .

قال الصبي :

ـ فلتتدثر جيداً أيها العجوز .

ثم أردف قائلاً :

ـ تذكر أننا في شهر سبتمبر .

قال العجوز :

ـ نعم . . الشهر الذي تأتي فيه الأسماك الكبيرة .

ثم مضى يقول :

ـ أما شهر مايو ففي مقدور أي إنسان أن يكون فيه صياداً .

وهنا نهض الصبي قائلاً :

ـ إني ذاهب الآن سعياً وراء السردين .

وحين عاد الصبي وجد العجوز يغط في النوم وهو جالس على مقعده . وقد تحولت الشمس إلى لطخة غريبة من ألوان قوس السماء .

أمسك الصبي ببطانية عتيقة من مخلفات الجيش ، ووضعها من فوق الفراش بطرفه من ظهر المقعد ، وفوق كتفي العجوز .

كانت كتفين عجيبتين ، تتميزان بالقوة برغم أنهما عتيقتان .

كما كان عنقه قويًا أيضًا ، وكانت الغضون والتجاعيد تختفي حينما كان العجوز نائمًا وقد تدلى رأسه إلى الأمام .

أما قميصه فقد كان مرقعًا برقع كثيرة ، حتى أصبح يماثل شراع مركبه ، وبهتت ألوان تلك الرقع إلى مختلف درجات الألوان تحت وطأة وهج الشمس .

وبدا رأس العجوز وهو مغلق العينين كأنما قد خلا من معالم الحياة .

كانت الجريدة ترقد فوق ركبتيه وقد أبقاها في مكانها ثقل ذراعه .

كان العجوز حافي القدمين حين راحت نسمات المساء تداعبه حانية في رفق ولين .

تركه الصبي هناك ، وحينما عاد ألفاه ما زال نائمًا كما تركه .

وضع الصبي يده على إحدى ركبتي العجوز وصاح به :

- استيقظ أيها العجوز .

فتح العجوز عينيه ، ثم عاد بعد هنيهة إلى رشده من أحلامه البعيدة .

ارتسمت على وجهه ابتسامة ، ثم سأل الصبي :

- بماذا جئت ؟

أجاب الغلام :

- بالعشاء ، سنتناوله معاً .

- لست في مستوى الجوع .

- هيا .. تعال وكُلْ ، لا يمكنك أن تخرج إلى الصيد وأنت جوعان .

- معك حق ، وعليّ أن أتناول الطعام أولاً .

استوى العجوز واقفاً على قدميه ، وأمسك بالجريدة وطواها . ثم بدأ يطوي البطانية .

فوجئ بالصبي يصيح به :

- دع البطانية حول كتفيك .

ثم أردف قائلاً :

- لن تخرج للصيد أبداً دون أن تتناول طعامك طالما بقيت أنا على قيد الحياة .

فقال العجوز :

- إذن عش طويلاً ، واعتنِ بنفسك .

ثم سأل الصبي :

- ماذا سنأكل ؟

أجابه الغلام :

- فولاً وأرزاً ، وموزاً مقلياً ، وبعضاً من اليخني .

وكان الصبي قد جاء بذلك الطعام من الشرفة في عمود ذي وعاءين معدنيين ، وأخرج من جيبه مجموعتين من أدوات المائدة ، كل منهما مكونة من سكين وشوكة وملعقة ملفوفة في منديل من الورق

سأله العجوز :

- من أعطاك هذه الأشياء ؟

أجاب الصبي :

- مارتين . . صاحب المحل .

- يجب أن أشكره .

فقال الغلام :

- لقد شكرته في حينه ؛ ولست في حاجة إلى أن تشكره مرة أخرى .

قال العجوز في حماس :

- سأعطيه لحم بطن سمكة كبيرة في يوم ما . ألم يفعل ذلك معنا أكثر من مرة ؟

أجاب الصبي :

- أعتقد ذلك .

- يجب علي إذن ألا أعطيه شيئاً أكثر من لحم بطن سمكة ، إنه يهتم بنا كثيراً .

- وأرسل لنا قدحين من البيرة

ـ أتعبني السير المتواصل في الطلب .

ـ أعرف . ولكن هذه في زجاجات وسمح بها صاحب الحانوت ، وسأعيد إليه الزجاجتين الفارغتين .

فقال العجوز :

ـ هذا منتهى اللطف منك .

ثم أردف :

ـ أتتناول الطعام ؟

فتحدث إليه الصبي برقة ودماثة وكرم :

ـ سآتيك به .

ثم أضاف قائلاً :

ـ لم أشأ أن أفتح العلبة قبل أن تكون متأهباً لتناول الطعام .

فقال العجوز :

ـ إنني متأهب الآن .

وأكمل حديثه قائلاً :

ـ إنني أحتاج فقط إلى فترة لأغسل يدي فيها .

ففكر الصبي ثم سأل نفسه :

ـ أين يغتسل (١) العجوز ؟ إن مصدر مياه القرية على بعد شارعين من هنا تقريباً .

---

(١) يغتسل : الاغتسال بالماء .

ثم استغرق الصبي لحظة مفكراً ، ثم قال لنفسه :

ـ كان علي أن أحضر له شيئاً من هنا ، بقطعة صابون ، ومنشفة جديدة ، لماذا لم أفطن إلى ذلك ؟ يجب أن أبتاع له قميصاً آخر ، وسترة للشتاء ، وحذاءً من أي نوع ، وبطانية أخرى .

قال العجوز :

ـ إن اليخني الذي تحضره ممتاز .

سأله الصبي :

ـ هلا حدثتني عن « البيسبول » !

قال العجوز في سعادة :

ـ فاز فريق « اليانكي » في مباراة الدوري الأمريكي كما سبق أن قلت .

قال الغلام :

ـ ولكنه خسر مباراة اليوم .

ـ هذا لا يعني شيئاً . إن « ديماجيو » العظيم متأهب لاستعادة مجده .

ـ ولكن لديهم أبطالاً غيره في الفريق .

ـ طبعاً . ولكن هناك فرق بين « ديماجيو » وغيره . وفي الدوري الآخر بين فريقي « بروكلين » و « فيلادلفيا » أحسب أن فريق « بروكلين » سيفوز ، غير أنني أتذكر « ديك سيسلر » وتلك الأبعاد في الملعب القديم .

ـ لم يكن يضاهيهم أحد . إن « ديك سيسلر » يطلق الكرة إلى أطول مسافة شاهدتها في حياتي .

ـ أوتتذكر عندما كان معتاداً على التردد على الشرفة ؟ لقد وددت لو أدعوه إلى الصيد ، ولكنني كنت أجبن من أن أسأله ذلك ، ثم سألتك أن تدعوه أنت ، غير أنك جبنت أيضاً .

ـ أعرف ذلك ، كانت غلطة كبيرة . ومن أدرانا ؟ فربما ذهب معنا ، وحق له بعد ذلك أن يمضي معنا في آخر عمرنا .

فقال العجوز :

ـ وددت أن أصطحب « دي ماجيو » العظيم في رحلة صيد .

ثم استطرد :

ـ يقولون إن أباه كان صياداً ، لعله كان فقيراً مثلنا فيفهم وضعنا .

ـ أما والد « سيسلر » العظيم فلم يذق الفقر ، وقد كان ذلك الوالد يلعب في مباريات الدوري حين كان في مثل سني .

ـ عندما كنت صغيراً ، كنت أتولى أمر شراع في سفينة عريضة جداً ذات أشرعة وصوار ، وكانت متجهة إلى إفريقيا ، وقد رأيت سباعاً على الشواطئ في المساء .

ـ أعرف ، لقد أخبرتني بذلك من قبل .

ـ هل نؤثر أن نتحدث عن إفريقيا أو عن « البيسبول » ؟

فقال الصبي :

ـ أعتقد أن « البيسبول » أفضل .

ثم استطرد قائلاً :

ـ حدثني عن « جون ج . ماكجرو » العظيم .

ـ اعتاد فيما مضى أن يجيء أحياناً إلى الشرفة ، ولكنه كان جلفاً فظاً وإذا شرب الخمر كان من الصعب إرضاؤه ، أو التعامل معه . كان عقله مشغولاً بالجياد تماماً مثلما كان يهتم بالبيسبول ، وكان دائماً يحمل في جيبه قوائم بأسماء الجياد ، وكثيراً ما يذكر أسماءها في محادثاته التليفونية

فقال الصبي :

ـ كان إدارياً عظيماً يحسن التنظيم ، وكان أبي يعتقد أنه أعظم المنظمين .

عندئذ قال العجوز :

ـ ذلك لأنه كان يجيء إلى هنا في معظم الأوقات .

ثم استطرد قائلاً :

ـ لو أن « دوروتشر » استمر يأتي إلى هنا كل عام لاعتقد والدك أنه أعظم المنظمين .

ـ من هو أعظم المنظمين حقاً . لوكيه أو ميكيه جونثاليث ؟

ـ أعتقد أن كلاً منهما يضارع الآخر .

ـ وأنت أنجب صياد .

ـ كلا ، أعرف آخرين أمهر مني .

فقال الصبي :

ـ كلا .. كيف يتأتى ذلك ؟!

ثم أردف :

ـ هناك العديد من مهرة الصيادين ، والبعض يعد من أعظم الصيادين ، ولكن هناك أنت فقط ، إنك نسيج وحدك .

ـ شكراً لك ، إنك تجعلني سعيداً : آمل ألا تخرج من البحر سمكة من الضخامة بحيث تثبت أننا مخطئون .

ـ ليس هناك من تلك السمكة إذا كنت لم تزل قوياً كما تقول .

قال العجوز معلقاً :

ـ ربما لا أكون قوياً كما أعتقد .

ـ ثم أكمل قائلاً :

ـ ولكنني أعرف كثيراً من الحيل : وأتحلى بالإصرار والعزم .

ـ عليك أن تتجه إلى مخدعك الآن لتنام حتى تصحو نشطاً في الصباح . سآخذ المعدات معي إلى الشرفة .

ـ طابت ليلتك إذن ، سأوقظك في الصباح .

فقال الصبي :

ـ إنك ساعتي المنبهة .

وهنا انبرى العجوز قائلاً :

ـ الشيخوخة هي ساعتي المنبهة .

صمت هنيهة ، ثم استطرد قائلاً :

- لماذا يستيقظ من تقدمت بهم السن مبكرين ؟ ألكي يفوزوا بيوم أطول من الآخرين ؟

فقال الصبي :

- لا أدري .

ثم قال :

- ولكن ما أعرفه أن الأولاد الصغار ينامون في وقت متأخر ثم يروحون في نوم متصل عميق .

هز العجوز رأسه بثبات .

- يمكنني أن أتذكر ذلك حينما كنت صغيراً .

ثم قال :

- سأوقظك في الوقت المحدد .

- إنني لا أحب أن يوقظني الرجل الذي أعمل معه ، فهذا يشعرني كما لو كنت أدنى منه .

- أعرف ذلك .

- أرجو لك نوماً طيباً أيها العجوز .

انسل الغلام خارجاً . لم يكن هناك ضوء عندما تناولا عشاءهما على المائدة .

خلع العجوز ؛ بنطلونه ؛ ليمضي إلى فراشه في الظلام .. ثم لف البنطلون على الجريدة وكومها متخذاً منها وسادة لرأسه ، وغطى أسماله

السرير الزنبركية بالجرائد القديمة ، ونام فوقها بعد أن لف نفسه ببطانية .

استغرق العجوز في النوم بعد فترة وجيزة ، وعادت به أحلامه إلى صباه ، وعادت إلى إفريقيا .. إلى شطآنها الذهبية الطويلة ، وشطآنها البيضاء التي تبهر العيون ، وإلى الأراضي ذات الارتفاع الشاهق الداخلة في البحر ، وجبالها السمراء التي تكاد تناطح السماء .

كان يعيش كل ليلة على طول ذلك الساحل ، وهو يسمع في أحلامه هدير الأمواج ، ويرى فوقها زوارق السكان المحليين قادمة بهم ، وكان يستنشق رائحة القار ونسالة الحبال القديمة فوق سطح المركب الذي استلقى عليه ، ويصل إلى أنفه عبير أرض إفريقيا الذي يحمله إليه نسيم الصباح .

وعادة ما كان يصحو عندما يستنشق عبير الأرض ، فيرتدي ثيابه ، ويذهب لإيقاظ الصبي . ولكن عبير الأرض الذي حمله إليه نسيم الصباح استنشقه مبكراً في هذه الليلة ، وعرف ذلك في حلمه ، فاستمر يحلم برؤية القمم البيضاء لجبال الجزر البارزة من البحر ، ثم رأى في حلمه شتى موانئ ومرافئ الكناري ومراسيها البحرية .

لم يعد العجوز يحلم بالعواصف ، ولا بالأحداث الكبيرة ، ولا بالأسماك الضخمة ، ولا بالمعارك ، ولا بمباريات القوة ، ولا بزوجته .

إنه الآن يحلم فقط بالأماكن والسباع التي كانت تلهو هناك على الشاطئ ، كما تلهو صغار القطط في الغسق ، كان يحب تلك الأسود مثلما يحب الصبي الذي لم يكن يحلم به قط .

سيستيقظ من نوم سهوبة ، وتطلع من الباب تخرج إلى الشمس ، ورفع بنطلونه وارتداه .

بال العجوز خارج الكوخ ، ثم مضى صاعداً في الطريق لإيقاظ الغلام .

كان يرتعد من برد الصباح ، ولكنه كان يعرف أنه سيشعر بالدفء : إذ سرعان ما سيشرع في التجديف عبر البحر .

كان باب البيت الذي يقيم فيه الصبي غير موصد ، ففتحه العجوز ومضى حافي القدمين في هدوء إلى الداخل . كان الصبي نائماً فوق سرير صغير في أول حجرة ، واستطاع العجوز أن يراه بوضوح على الضوء المنبعث من القمر الذي قرب الزوال . أمسك بإحدى قدميه برفق ، وظل ممسكاً بها حتى صحا الصبي ، واستدار ناظراً إليه .

أومأ إليه العجوز بتحية الصباح .

تناول الصبي بنطلونه من فوق المقعد المجاور للسرير ، ثم جلس على الفراش ليرتدي بنطلونه .

انسل العجوز خارجاً ، وتبعه الصبي . كان النوم لا يزال يداعب أجفانه ، فوضع العجوز ذراعه حول كتفي الغلام وقال :

– أنا آسف .

فقال الصبي :

– كلا . لا داعي للأسف ! إن هذا ما يجب أن يفعله أي رجل .

سارا عبر الطريق إلى كوخ العجوز وسط الظلام . كان هناك رجال حفاة الأقدام يتحركون وهم يحملون صواري مراكبهم .

وحين وصل الصبي والعجوز إلى الكوخ ، حمل الصبي حبال الصيد في سلة ، والرمح والخطاف ، وحمل العجوز الصارى فوق كتفه .

التفت الغلام إلى العجوز وسأله :

ـ أتريد قدحاً من القهوة ؟

ـ سنضع المعدات في المركب ، ثم نحتسي بعض القهوة

وحصلا على قهوة باللبن من دكان يفتح أبوابه في الصباح الباكر ليقدم خدماته للصيادين .

ابتدأ الصبي ينتبه الآن بعد أن فارق النوم عينيه ، برغم أنه لم يزل يشق عليه أن يتخلى عن نومه .

سأل الصبي صاحبه :

ـ كيف نمت أيها العجوز ؟

فأجابه العجوز :

ـ نومة طيبة حقاً يا « مانولين » . إنني أشعر اليوم بالثقة .

فقال الصبي :

ـ وأنا أيضاً أشعر مثلك بالثقة . والآن يجب أن آتي بنصيبك ونصيبي من السردين ، وأن أزودك بالطعم الطازج أيضاً . إن الصياد الذي أعمل معه يحمل معداته بنفسه ، إنه لا يحب أن يحمل له أحد أي شيء .

حينئذ قال العجوز :

ـ نحن مختلفان . لقد جعلتك تحمل الأشياء حتى كنت في الخامسة من عمرك .

فقال الغلام :

ـ أعرف ذلك . . سأعود حالاً . . تناول قدحاً آخر من القهوة ، فكل ما نأخذه هنا على الحساب .

ومضى الغلام يسير فوق الصخور المرجانية حافي القدمين صوب الثلاجة حيث يخزن الطعم .

شرب العجوز قهوته ، وكانت هي كل ما يستطيع أن يحصل عليه منها ، وكان يعلم انه ينبغي عليه أن يحتسيها ، فمنذ وقت طويل صار الطعام مصدر إزعاج له ، فلم يعد يحمل معه أية وجبة غذائية كان معه زجاجة ماء يضعها في مقدمة المركب ، وكان ذلك هو كل ما يحتاج إليه في يومه .

عاد الصبي الآن ومعه السردين والطعم ملفوفين في إحدى الجرائد .

سارا معاً صوب المركب وهما يشعران بالحصى الذي يفترش الرمال تحت أقدامهما العارية . ولم يلبثا أن رفعا المركب ودفعاه حتى انزلق فوق الماء .

ـ حظاً سعيداً أيها العجوز !

فقال له الرجل :

ـ حظاً سعيداً

ثبت العجوز مجدافيه في موضعيهما ، وانحنى إلى الأمام وبدأ يجدف خارجاً من المرفأ تحت جنح الظلام . كانت هناك زوارق من الشواطئ الأخرى تشق طريقها إلى البحر .

كان العجوز يسمع صوت مجاديفها وهي تضرب صفحة الماء وتدفعه ، وإن لم يكن يراها الآن ، حيث توارى القمر خلف التلال .

وقد يتحدث أحدهم أحياناً من فوق قاربه ، غير أن معظم الزوارق كانت صامتة ، فليس إلا صوت ارتطام المجاذيف بالماء .

وما كانت الزوارق والمراكب تغادر الميناء حتى تفرقت مبتعدة عن بعضها البعض : وكل منها يسعى نحو البقعة التي يأمل أن فيها سمكاً وفيراً في المحيط .

كان العجوز يعرف أنه قد عقد العزم على أن يتوغل بعيداً ، وها هو ذا يخلف وراءه رائحة الأرض ، وراح يضرب الماء بمجدافيه صوب رائحة المحيط في الصباح الباكر الصافي .

شاهد العجوز الوميض الفوسفوري المنبعث من أعشاب الخليج حين كان يجدف فوق تلك البقعة من المحيط التي يطلق عليها الصيادون : البئر العظيمة ، حيث يوجد عندها عمق مفاجئ يصل إلى سبعمائة قامة . وعندها تتجمع الأسماك بسبب الدوامة التي يحدثها تيار الماء هناك ، وبجدارها نجد تجمعات من سمك الجمبري ، وسمك الطعم ، وأحياناً قطعاناً حية من الحبار في الثقوب العميقة ، وهي تطفو قريباً من السطح ليلاً حيث تتغذى عليها جميع الأسماك التي تطوف متجولة حول البئر .

كان العجوز يستطيع وسط الظلمة أن يحس بمقدم الصباح ، وبينما كان يجدف إذ سمع صوت اهتزاز مرتعشاً ، كالذي يحدثه السمك الطائر حين يغادر الماء ، وتلك الخشخشة التي تطلقها أجنحته الصلبة القوية وهو يرتفع محلقاً في الجو تحت جنح الظلام .

كان مغرماً بالأسماك الطائرة فهي صديقاته الأثيرات وسط المحيط . . كان يشعر بالأسى والشجن من أجل الطيور ، وبخاصة طيور الخرشنة ،

الطائرة الرقيقة السمراء التي كانت طائفة التحليق تمرق بالماء باحثة عن رزقها بدون أن تعثر على شيء . واستغرق في التفكير . . إن الطيور تعيش حياة أقسى من حياتنا نحن البشر ، فيما عدا الطيور الكاسرة والطيور الضخمة القويات الرحالة . لماذا خُلقت الطيور الصغيرة بهذه الرقة ، والمحيط بهذه القسوة؟ إن المحيط رفيق ورائع ، ولكنه يستطيع أن يكون قاسياً ويقسو على أهله فجأة ، ومثل تلك الطيور المحلقة تغوص وتصطاد . . إنها بأصواتها الرقيقة الحزينة أرق من أن تواجه البحر .

كان العجوز دائم التفكير في البحر ويسميه « لا مار » كما اعتاد الناس أن يسموه بالإسبانية عندما يعشقونه . وفي بعض الأحيان يتحدث أولئك الذين يحبونه بأشياء سيئة ؛ ولكنهم برغم ذلك يبدو أنهم يتحدثون عنه كما لو كانوا يتحدثون عن أنثى .

أما الشبان الصيادين الذين يستخدمون العوامات كعلامات عائمة لحبال صناراتهم وشباكهم ، والذين لديهم زوارق مزودة بمحركات آلية ابتاعوها حينما كانت أكباد أسماك القرش تدر كثيراً من النقود ، فإنهم عندما يتحدثون عن البحر يقولون بالإسبانية « إل مار » فيجعلونه مذكراً لا مؤنثاً (وهو مذكر في اللغة الإسبانية) . وكانوا يتحدثون عنه كمنافس أو كمجرد مكان أو حتى كعدو لدود .

ولكن العجوز كان يفكر فيه دائماً كأنثى ، وكشيء يمنح هبات عظيمة أو يحجبها عشقاً بها لنفسه ، وإذا صدرت منها أمور وحشية أو خطرة عنيفة فإنما لأنها لا تتمالك نفسها .

كما أنه كان يعتقد أن القمر تأثيره على البحر كما يؤثر على المرأة .

ظل العجوز يجدف بثبات بدون أن يستنفد جهداً منه أن يحتفظ بسرعة مناسبة ، وكان سطح المحيط مصقولاً كصفحة مرآة ، اللهم إلا بضع دوامات يحدثها التيار أحياناً عرضاً واتفاقاً ، وقد ترك الرجل التيار يضطلع بثلث العمل .

بدأ صباح النهار ينبلج فرأى العجوز أنه قد أوغل في البحر متجاوزاً ما كان قد قدره لنفسه ألا يتجاوزه حتى هذه الساعة .

وهمس لنفسه :

- لقد سبرت أغوار الآبار السحيقة طوال أسبوع كامل بدون أن أظفر بشيء .

وواصل العجوز الحديث مع نفسه :

- اليوم سأقتفي آثار قطعان « البينيت » (سمك استوائي من فصيلة التونة) والبكورة (سمك بحري كبير من فصيلة الاسقمري) فربما ظفرت بسمكة كبيرة منها .

وقبل أن يكتمل ضوء الصباح أعد العجوز ما لديه من الطعم ، ومضى قدماً مع التيار : وقد هبط الطعم الأول ووصل إلى عمق أربعين قامة ، والثاني إلى خمس وسبعين ، ثم الثالث والرابع فقد ألقى بهما إلى عمق سحيق في الماء الأزرق .. مائة قامة .. ومائة وخمس وعشرين قامة .

وكان كل طعم سمكة مقلوباً رأساً على عقب ، وقد شدت وحبكت بمهارة حول الخطاف وساقه الموجودة داخل اللحم . في حين كان الجزء المنحني والبارز من الخطاف وسنه الحاد مُغطّى بالسردين الطازج . وفي رأس كل

سردينة خطاف مزدوج له طرف في كل عين ، بحيث يتكون من ذلك نصف حلقة حول العينين الناتئتين .

لم يكن هناك جزء من الخطاف لا تحس عليه أية سمكة كبيرة بنكهته الحلوة وطعمه الطيب .

كان الصبي قد أعطاه سمكتين صغيرتين طازجتين من التونة ، وقد علقهما كمجسين كرصاصتين في خيطي الصيد الغائرين في العمق السحيق .

أما الخيطان الآخران فيحمل أحدهما في نهايته سمكاً أزرق ذي سوق هائلة ، والآخر يحمل سمكة صفراء صغيرة السن من سمك سليمان ، وكان العجوز قد استخدمهما من قبل ، ولكنهما كانا لا يزالان في حالة طيبة . وقد وضع معهما سردينا من طراز ممتاز يعطيهما نكهة طيبة ، ويكسبهما جاذبية .

القسم الثانى

كان ثني حبل من حبال الصيد في شكل قلم رصاص كبير ، وقد ثبت به عصاً خضراء بأنشوطة ، بحيث إن أية جذبة أو لمسة تصيب الطعم تكون كفيلة بتحريك العصا ، وجميعها تنغمس في الماء . وكل حبل معه لفتان ، يبلغ طولها ٢٤٠ قدماً ، ويمكن تثبيتها بإحكام في لفات أخرى إضافية ، حتى يمكن عند الضرورة أن تجذب إحدى الأسماك ما يبلغ عمقه ألفاً وثمانمائة قدم من الحبال .

وراقب العجوز اهتزازات العصي الثلاث ؛ وراح يجدف برفق لكي يحفظ لكل حبل غوره . وازداد الضوء وضوحاً ، وأوشكت الشمس أن تبرز من خدرها .

أشرقت الشمس من وراء البحر فاستطاع العجوز أن يرى بقية القوارب متناثرة فوق سطح الماء حتى الشاطئ .

ثم ارتفعت الشمس في السماء ، وسقطت أشعتها على صفحة الماء ، وانعكست متألقة كالفضة على عيني العجوز فآلمته . واستمر يجدف بدون أن ينظر إلى سطح البحر ، واكتفى بمراقبة حركات حباله في الأعماق السحيقة ، وأحكم الرجل مواضعها : بحيث يبقى كل طعم إلى المستوى الذي يريده له تماماً انتظاراً لأي سمكة تندفع نحوه . أما غيره من

الصيادين ، فإنهم يتركون صناراتهم للتيار يعبث بها ، حتى إنها أحياناً قد تكون على عمق ثلاثمائة وستين قدماً وهم يظنون أنها هبطت إلى مائة قدم .

استمر العجوز في التفكير وهو يقول في نفسه :

— لكنني أحتفظ بمواقع ما ألقي به من طعم بدقة ، غير أن الحظ قد تخلى عني ، ولكن من يعلم ؟ لعله يحالفني اليوم ، فكل يوم هو يوم جديد . من الأفضل أن يكون الإنسان محظوظاً ، ولكنني أوثر إذ عملت عملاً أن أتقنه حيث إذا جاء الحظ يكون المرء متأهباً لاستقباله .

مرت ساعتان ، منذ بدء ارتفاع الشمس ، ولم يعد وهجها يؤذي عيني العجوز كثيراً حين ينظر نحو الشرق . . إنه الآن لم يعد يرى سوى ثلاثة قوارب على سطح البحر بالقرب من الشاطئ .

وقال العجوز في نفسه :

— طوال حياتي أذتني شمس الصباح الباكر كثيراً . ومع ذلك فما زالتا بخير ، وأستطيع أن أحدق في الشمس مباشرة عند المساء قبل أن يهبط الظلام ، حيث تكون مخففة بعض قوتها تقريباً ، أما في الصباح فهي مؤلمة .

وفجأة رأى العجوز طائراً من طيور الفرقاط يحوم فوقه في السماء مرفرفاً بجناحيه الأسودين الطويلين ، ثم هبط سريعاً وهو ينحدر بجسمه نحو الماء ، ولم يلبث أن أخذ يحوم في السماء مرة أخرى .

فقال العجوز لنفسه :

— إنه لم يكن يبحث . . بل قد لمح شيئاً .

جذف العجوز في الماء بطيئاً وبثبات نحو الموضع الذي كان يحوم حوله

الطائر ، وشق طريقه إلى الأمام متوجهاً للتيار في رفق بدون أن يهمل استقامة حباله في الماء ، وبأسرع مما كان يفعله إذا لم يكن يحاول تتبع الطائر .

ارتفع الطائر في الجو ، وحوم مرة أخرى باسطاً جناحيه بدون أن يحركهما : ثم هبط فجأة منقضاً على الماء ، ورأى العجوز سمكة من السمك الطيار تشق الماء وتقفز خارجة منه : ثم هفت يائسة فوق سطح البحر .

صاح العجوز !

ـ دلفين . . دلفين ضخم !

أخرج مجدافيه من الماء وأدخلهما في المركب ، وأخرج حبلاً صغيراً من قاع حنية المركب ، وكان ينتهي بسلك متصل بآخره خطاف متوسط الحجم ثبت فيه طعماً من السردين ، وعقد طرف الحبل في حلقة مثبتة في مسمار بمؤخرة المركب .

ثم أعد حبلاً آخر ، وزود خطافه بطعم ، وتركه في حلقة المركب .

وعاد يجدف بحذر يراقب الطائر الأسود الذي راح الآن يرفرف بجناحيه الطويلين هابطاً إلى قرب سطح الماء

شاهد الطائر ينقض مرة أخرى وهو يضرب بجناحيه بقوة وبسرعة بدون يتتبع السمك الطائر . واستطاع العجوز أن يرى تموج الماء المنتفخة التي يصنعها الدلفين الضخم في حين كان هو والطائر يتعقبان الأسماك الفارة ، وكان الدلفين يشق الماء أسفل الأسماك الطائرة ماضياً بسرعة عندما غاصت الأسماك .

وعرف الرجل العجوز أن سرباً من الدلافين انتشر في الماء ، وأن فرصة

الأمل في النجاة قد ضاقت أمام السمك الطائر ، ولم يعد هناك أمل للطائر قط. كانت الأسماك الطائرة ضخمة بالنسبة إليه ، وأسرع منه .

ظل العجوز يراقب الأسماك الطائرة وهي تنطلق من الماء المرة تلو المرة ، والطائر يتعقبها من غير طائل .

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

ـ لقد ابتعد عني سرب الأسماك الطائرة ، وأصبحت الشقة بيني وبينه طويلة ، فهو يتحرك بسرعة كبيرة . ولكن لعلني ألتقط سمكة ضالة شاردة، ولعلها تكون ضخمة ، ولا بد أن تكون سمكتي الكبيرة التي أنشدها موجودة في مكان ما .

وبقيت السحب منعقدة فوق الأرض حتى بدت كأنها الجبال ، وظهر الشاطئ من بعيد كخط أخضر طويل تطل من ورائه التلال الزرقاء الرمادية .

وأصبح لون الماء أزرق حالكاً مشرباً بلون أرجواني ، وعندما تمعن فيه العجوز شاهد بقعاً حمراء من العوالق مكونة من كائنات حيوانية أو نباتية صغيرة معلقة في المياه القاتمة أو طافية فوقها ؛ والضوء العجيب الذي تبعثه به الشمس الآن ، وراقب حباله ليتأكد من أنها منغمسة في أعماق المياه ، وغمرته السعادة وهو يرى مزيداً من العوالق ، لأن هذا معناه وجود الأسماك ، وكان الضوء الغريب الذي ترسله الشمس في الماء بعد أن ازدادت علواً في السماء بشيراً بجو صحو ، وكذلك شكل السحب المتلبدة فوق الأرض . ولكن الطائر كاد يغيب الآن عن مرمى البصر ، ولم يبد على سطح الماء سوى بقع من طحالب السرجس البحرية التي أحالتها الشمس إلى

اللون الأصفر ، وحيوان الرنجة البرتغالية كان طافياً بالقرب من المركب ، وهو حيوان من الأنابيبيات ، لعله مُتَشَكِّل كهيئة دقيقة ملتوية بألوان زاهية كألوان قوس قزح ، يقف طوراً على جنبه ثم يستوي في وضعه الطبيعي وكان يتقدم مبتهجاً وهو يطفو كفقاعة تمتد خلفها خيوط وشعيرات قرمزية مهلكة تمتد ياردة في الماء .

ومال الرجل ناحية أحد مجدافيه ، ونظر إلى ما تحت الماء ، فرأى سميكات صغيرة كانت في مثل لون الخيوط والشعيرات ، وكانت تسبح تحت الظل الذي تلقيه الفقاعة في أثناء طفوها وبين تلك الشعيرات القرمزية المميتة ، وكانت تلك السميكات لديها مناعة ضد سم هذه الشعيرات ، ولكن الإنسان لم يكن يتمتع بتلك المناعة ، وعندما تلتصق بعض تلك الخيوط والشعيرات القرمزية اللزجة بأحد حبال الرجل العجوز حين كان يتعامل مع إحدى الأسماك فإنه يصاب بآثار وقروح مؤلمة في ذراعيه ويديه ، كتلك التي يسببها اللبلاب السام ، أو البلوط السام ، غير أن التسمم من تلك المادة يحدث سريعاً ، ويلسع لسعات السياط .

وكم كانت جميلة تلك الفقاعات الملونة بألوان قوس قزح ، ولكنها كانت أكثر الأشياء زيفاً في البحر ، وكان العجوز يحب أن يشاهد السلاحف البحرية الضخمة وهي تأكلها ، واقتربت السلاحف منها عندما وقع بصرها عليها ، وواجهتها من الأمام ، ثم أغمضت عيونها حتى أصبحت خلف خوذاتها العظمية تماماً ، والتهمت الخيوط والشعيرات . وانتهى الأمر هذا المشهد يعجب العجوز ، كما كان يحب أن يمشي فوق ظهور تلك السلاحف على الشاطئ ، بعد أن تهب العواصف ، فيستمتع بسماع الفرقعة وهو يضغط عليها ويفقعها بأخمص قدميه الصلبتين الخشنتين المتقرنتين

وكان يحب السلاحف الخضراء وسلاحف البحر بأناقتها وسرعتها وبقيمتها الكبيرة ، وله صداقة جميلة بالازدراء نحو السلاحف البحرية الكبيرة من ذوات الدروع الصفراء والرؤوس الضخمة ، والتي تتصف بالغباء ، وغرابة الغزل الذي يمارسه الذكور نحو الإناث التي تلتهم حيوانات البوارج البرتغالية وهي مغلقة العينين

لم يكن حبه السلاحف يبدو له ، برغم أنه عمل في مراكب صيادي السلاحف سنين عدة .

كان يأسف لها جميعاً ، ويشعر بالحزن من أجلها ، حتى السلاحف الضخمة التي يمتد طول دروعها في طول الزورق ، والتي كانت تزن طناً .

ومعظم الناس من متحجري القلوب ، وتخلو أفئدتهم من الرحمة والشفقة إزاء السلاحف ، إذ يظل قلب السلحفاة يخفق وينبض عدة ساعات بعد استئصاله من السلحفاة المذبوحة ، ولا يؤثر ذلك فيهم . وكان العجوز يقول لنفسه :

- أنا أيضاً لي مثل ذلك القلب ، ولي يدان وقدمان كأيدي وأقدام السلاحف .

كان يأكل بيضها الأبيض ليكسبه قوة ، وكان يأكل السلاحف أيضاً طوال شهر مايو حتى يشتد ساعداه في سبتمبر وأكتوبر ليقوى على مواجهة الأسماك الضخمة حقاً

كما كان يشرب قدحاً من زيت كبد القرش كل يوم من البرميل الموجود بالكوخ الذي يضع فيه كثير من الصيادين معداتهم . وهو هناك من أجل كل الصيادين الذين يشتهونه . ويكره أكثر الصيادين مذاق الزيت ، في حين

إن مذاقه ليس أشد قسوة من مرارة الساعة التي يستيقظون فيها من مضاجعهم في الصباح الباكر ، كما أن ذلك الزيت مفيد لمقاومة نزلات البرد والإنفلونزا ، فضلاً عن أنه مفيد للعينين .

تطلع العجوز الآن إلى أعلى فرأى الطائر يحوم مرة أخرى ، فقال بصوت عالٍ :

ـ لقد اكتشف سمكاً .

لم ير العجوز في هذه المرة سمكاً طائراً ، أو سمك طعم مبعثراً على سطح الماء .

يشاهد سمكة صغيرة من نوع التونة تعلو في الهواء ثم تستدير وتغوص برأسها في الماء .

كانت سمكة التونة تتألق كالفضة في وهج الشمس ، وما إن عادت تغوص ساقطة إلى الماء حتى برزت أخرى وأخريات غيرها وهي تقفز في كل اتجاه ، عابثة بالماء وتحركه مضطرباً ، في حين كانت أسماك التونة تقفز قفزات عالية وراء سمكات الطعم ، مطاردة إياها ثم تحيط بها .

وحدثت العجوز نفسه قائلاً :

ـ إذا لم تمض بعيداً فسأفوز بها .

وجعل يراقب سرب الأسماك الذي جعل يزبد الماء مبيضاً . وكان الطائر يهبط ويغوص وراء سمكات الطعم التي أجبرت على أن تبرز إلى السطح تحتمي السمكة بعد أن أصيبت بذعر مفاجئ .

وقال العجوز :

ـ إن ذلك الطائر عونٌ كبير لي .

وسرعان ما شعر بالحبل الموجود في مؤخرة المركب يتوتر تحت قدمه ، حيث كان قد عقد أنشوطة به ، فاحتفظ به أسفل باطن قدمه . أسقط مجدافيه في المركب ، وشعر بثقل سمكة التونة وهي تهتز وترتعش : فأمسك بالحبل بقوة ، وبدأ يجذبه . . زاد ارتعاش السمكة وهو يرى جنب الحبل ، واستطاع أن يرى ظهرها الأزرق ، وجوانبها الذهبية ، وهي في الماء قبل أن يطوح بها في الهواء ، ويُسقطها داخل المركب . ورقدت السمكة في المؤخرة تحت الشمس ; وكانت مكتنزة وبدا شكل الرصاصة ، وأخذت تحملق بعينيها الكبيرتين اللتين يعوزهما الذكاء وهي تصارع من أجل الحياة ضاربة ألواح المركب الخشبية ضربات مرتعشة سريعة بذيلها الدقيق الأملس الناعم .

ضربها الرجل العجوز على رأسها بدافع الشفقة ، وركلها بقدمه ، غير أن جسدها كان لم يزل يرتعد ، ويرتجف تحت مؤخرة المركب .

صاح العجوز :

ـ إنه البكورة (نوع من السمك البحري الكبير من فصيلة السقمري) .

ثم أردف :

ـ إنها تصلح لأن تصنع من لحمها طعماً جميلاً . إنها تزن نحو عشرة أرطال .

إنه لا يتذكر متى بدأ يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ حينما يكون وحده .

كان يغني إذا ما خلا إلى نفسه في الأيام الخالية ، وكان أحياناً يغني في

ليلاً وهو يدير الدفة في المراكب الشراعية وحيدة الصاري ، أو في مراكب صيد السلاحف .

ومن المحتمل أنه بدأ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع حين يكون وحده ، بعد أن تركه الصبي الذي كان يعمل معه .

وعندما كانا يديران الصيد هو والصبي كانا عادة يتحدثان معاً عندما تدعو الضرورة إلى ذلك فقط . . كان حديثهما دائماً في أثناء الليل ، أو في الأحوال الجوية السيئة حينما تواجههما العاصفة . ذلك أنه من الأفضل عدم الحديث في البحر بدون داع ، وكان العجوز يحترم تلك الفضيلة على الدوام .

أما الآن فإنه يتحدث مرات عديدة إلى نفسه معبراً عن أفكاره بصوت مرتفع ما دام وحده ، وليس هناك من يزعجه بثرثرته .

تحدث العجوز إلى نفسه بصوت مرتفع قائلاً :

- إذا سمعني الآخرون أتحدث إلى نفسي بصوت مرتفع فسيظنون أنني مجنون ، ولكنني ما دمت لست كذلك فإنني لا أبالي . إن أثرياء الصيادين يمتلكون أجهزة الراديو تتحدث إليهم في مراكبهم ، وتنقل لهم أنباء « البيسبول » .

ثم قال لنفسه :

- والآن ليس هذا أوان التفكير في « البيسبول » ، بل إنه الوقت الذي أفكر فيه فقط في أمر واحد ، هو ذلك الذي خلقت من أجله .

ربما على العجوز اغتنام [illegible] .

ـ قد تكون هناك سمكة ضخمة حول هذا السرب ، لذلك انفصلت فقط سمكة واحدة شاردة من سرب سمك الصندوق الكبير ، وتركته يمضي بعيداً وبعيداً . بل كان مع بطء الطيور على سطح الماء يمضي بسرعة فائقة نحو الشمال الشرقي ، أيكون ذلك من عادات الأسماك في مثل هذا الوقت من اليوم ، أم لعلها تكون علامة من علامات الطقس لا أعرفها ؟

لم يكن في استطاعته الآن أن يرى خضرة الشاطئ ، اللهم إلا قمم التلال الزرقاء التي بدت بيضاء ، كأنما تؤطرها الثلوج : كما بدت له السحب كما لو كانت جبالاً عالية من الثلج فوق القمم .

لقد بدا البحر قاتمة ، وتشكل الضوء على هيئة منشورات ثلاثية في الماء . إن الآلاف التي لا تعد ولا تحصى من نقاط وبقع العوالق تخونه من كائنات حيوانية أو نباتية صغيرة معلقة قد انمحت الآن بتأثير ضوء الشمس الساطعة . ولم يعد العجوز يرى سوى المنشورات الضوئية التي تبدو مثقلة في أعماق سحيقة عبر المياه الزرقاء مع حباله الغاطسة فيها إلى مسافة تبلغ ميلين عمقاً .

كان الصيادون يطلقون على الأسماك من نوع ذلك السرب اسم : التونة ، ولا يميزون بينها بأسمائها الصحيحة إلا عندما يبيعونها في الأسواق أو يعدون منها الطعام .

اشتدت حرارة الشمس الآن ، وأحس العجوز بسخونتها في قفاه ، وشعر بالعرق يقطر رويداً هابطاً إلى ظهره وهو يضرب بمجدافيه في تؤدة .

يحدث نفسه قائلاً :

ـ يمكنني أن أدع الزورق ينساب مع التيار ، وأخلد إلى النوم بعد أن

أربط أنشوطة من الخيط حول إصبع قدمي لتوقظني في الوقت المناسب ، ولكن اليوم يكون قد مضى خمسة وثمانون يوماً ، ولا بد أن أظفر فيه بصيد جيد

وفي هذه اللحظة رأى ، وهو يراقب حباله ، عصاً من عصيه الخضر البارزة فوق الماء تنغمس بشدة ، فقال بصوت مسموع :

ـ نعم ، نعم

أخرج مجذافيه من الماء وأدخلهما إلى المركب بدون أن يتحرك من مكانه ومد يده إلى الخيط فأمسك به في رفق بين الإبهام والسبابة بيده اليمنى ، لم يحس أي توتر ولا أي ثقل ، فأمسك الخيط بخفة .

ثم تكرر ما حدث مرة أخرى ، وكانت جذبةً مترددة : فلم تكن عنيفة ولا خفيفة ، ففهم ما هنالك تماماً .

كانت هناك على عمق مائة قامة سمكة « مرلين » (سمك إقيانوسي ضخم) تلتهم السردين الذي يغطي طرف وساق الخطاف الذي يبرز من رأس سمكة التونة الصغيرة .

أمسك العجوز الخيط بيده اليسرى في رفق وتؤدة ، وحرره من العصا ليجري بين أصابعه بدون أن تشعر السمكة بأي توتر .

وحدّث العجوز نفسه قائلاً :

ـ عند ذلك العمق السحيق : لا بد أن يكون سمكاً ضخماً .

وأضاف قائلاً :

ـ تناوليها أيتها السمكة .. تناوليها .. أرجوك تناوليها .. كم هي طرية

طازجة رائعة على عمق ستمئة قدم في الماء البارد بظلامك الأسود . . قومي بجولة أخرى في الظلام ، وعودي لتتناوليها .

شعر بجذبة خفيفة رقيقة ، ثم بأخرى أشد منها ، حيث إنه من الصعب أن تخلص رأس السردينة من الخطاف .

ثم لم يعد يشعر بشيء .

قال العجوز بصوت عال :

ـ تعالي . .

واسترسل قائلاً .

ـ قومي بجولة أخرى : تشمميها فقط . أليست لذيذة ! تناوليها الآن ثم ستحظين بعد ذلك بالتونة جامدة وباردة وشهية . . لا تخجلي أيتها السمكة . تناوليها .

انتظر وهو يمسك بالحبل بين إبهامه وسبابته ، وراح يراقبه ويراقب الخيوط الأخرى في نفس الوقت ، لعل السمكة تسبح صاعدة أو هابطة .

ثم جاءت الجذبة الخفيفة الرقيقة مرة أخرى .

فصاح العجوز :

ـ ستأخذها .

ثم قال :

ـ اللهم أعنها لتأخذها .

غير أن السمكة لم تأخذها ، بل ابتعدت عنها . . ولم تعد أصابع العجوز تحس شيئاً .

وقال العجوز :

ـ لا أظن أنها ابتعدت . . بل وحده يعلم . . ربما تكون في جولة . . وهي عادت من أحد الكهوف قبل ذلك ، ومازالت تتذكر شيئاً منه .

ثم شعر بلمسة خفيفة في الخيط ، فعرف السعادة وقال :

ـ لم تكن سوى جولة قامت بها .

وهمس لنفسه :

ـ ستتناوله .

فعرف السعادة وهو يشعر بالجذبة الخفيفة ، ثم أحس بشيء ثقيل . . أثقل مما يتصور .

كان ذلك بسبب ثقل السمكة ، فأرخى بعض الحبل ، وجعله ينساب هابطاً إلى أسفل ، وفك معه إحدى اللفتين الاحتياطيتين . وبينما كان الخيط يهبط من بين أصابع الرجل العجوز ، كان لا يزال يشعر بالثقل الكبير ، رغم أن الإحساس بالضغط على الإبهام والسبابة كان ضئيلاً .

قال العجوز :

ـ أية سمكة هذه ؟ . . إنها تلتقطه في جانب فمها الآن ، وهي تصعد معه إلى أعلى .

ثم فكر بينه وبين نفسه بأنها ستستدير وتبتلعه .

لم يقل ذلك ، لأنه كان يعتقد أن الإنسان إذا تحدث عن شيء من الخير قبل حدوثه ، فربما لا يتحقق ذلك الخير أبداً .

كان يعلم مدى ضخامة تلك السمكة ، وفكر أنها تتحرك في الأعماق المظلمة : وسمكة التونة تعترض فمها .

وفي تلك اللحظة أحس أن حركة السمكة قد توقفت ، ولكن ثقلها مازال موجوداً .

ثم ازداد الثقل فأرخى العنان للحبل أكثر مما كان . وشدد من ضغط إبهامه وسبابته للحظة ، فشعر بزيادة الوزن ، ولاحظ هبوطاً إلى أسفل

وقال الرجل :

ـ لقد تناولتها . . والآن سأجعلها تأكلها جيداً .

وترك الحبل ينزلق من بين أصابعه ، في حين راح يثبت بيده اليسرى الطرف السائب من اللفتين الاحتياطيتين إلى أنشوطة اللفتين الخاصتين بالحبل التالي . إنه الآن على أهبة الاستعداد ، فلديه ثلاث لفائف احتياطية من الحبل ، طول كل واحدة منها يبلغ مائتين وأربعين قدماً ؛ بالإضافة إلى اللفة التي يستعملها حالياً .

وصاح الرجل :

ـ كُليها كُليها جيداً

ثم فكر :

ـ كُليها حتى يخترق طرف الخطاف قلبك ويقضي عليك . اصعدي في يسر ، ودعيني أطعنك بالرمح . حسناً . . هل أنت متأهبة الآن ؟ هل طال وقت استمتاعك بمائدة الغداء ؟

وصاح عالياً :

- الآن !

ثم جذب الحبل بيديه الاثنتين فاستطاع أن يرفع الخيط إلى مدى ياردة ، ثم أخذ يجذب ويجذب وهو يتأرجح مع كل ذراع بالتناوب مستجمعاً كل قوى ذراعيه وجسده .

غير أنه لم يحدث شيء .

لقد تحركت السمكة مبتعدة في هوادة ، ولم يستطع العجوز أن يرفعها بوصة واحدة .

كان حبله قوياً ، وقد صُنع خصيصاً من أجل الأسماك الثقيلة . أمسك الرجل بالحبل وأسنده إلى ظهره حتى أصبح مشدوداً إلى درجة أن حبيبات الماء كانت تقفز منه ، ثم بدأ يسمع للحبل همهمة في الماء ، وكان مازال ممسكاً به ، ويزداد التصاقاً بمقعد التجذيف وهو يميل بكل جسمه في اتجاه مضاد للجذب .

بدأ المركب يتحرك صوب الشمال الغربي .

وتحركت السمكة بثبات ، وسارا معاً في المياه الهادئة .

كانت بقية الخيوط لا تزال تحمل طعومها في الماء ، بدون أن يكون هناك شيء يستوجب العمل .

قال العجوز بصوت مرتفع :

- كم وددت أن يكون الصبي معي .

ثم أردف .

ـ إن سمكة تسحبني ، وأنا الشيء الصغير المسحوب . كان في إمكاني أن أسرع بجذب الحبل ، غير أن السمكة قد تفلت حينئذ منه . يجب أن أمسك بها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وأن أرخي لها العنان كلما كان ذلك أمراً من الواجب أن أفعله . . حمداً لله ، إن السمكة تمضي قدماً ولا تهبط إلى أسفل .

وأضاف قائلاً لنفسه .

ـ ماذا عساني أفعل لو أن السمكة قررت أن تهبط إلى أسفل ؟ لست أعلم . ماذا سأفعل لو أنها غاصت فجأة وماتت ؟ لا أدري . ولكنني سأفعل شيئاً . هناك أشياء كثيرة يمكنني أن أفعلها .

شد العجوز الحبل إلى ظهره ، وراقب ميله في الماء ، في حين كانت المركب تمضي في طريقها نحو الشمال الغربي .

ودار بخلد العجوز أن ذلك سيقتلها ، لأنه لا يمكنها أن تظل على تلك الحال إلى الأبد .

مضت أربع ساعات والسمكة ما زالت تسبح بثبات متوغلة في البحر وهي تقطر المركب ، وكان العجوز ملتصقاً بقوة إلى مقعد التجذيف والحبل مشدود إلى ظهره .

وقال لنفسه :

ـ كان الوقت ظهراً عندما اصطدتها بالخطاف ، ولم أرها قط

وكان قد دفع بقبعته المصنوعة من القش بقوة فوق رأسه قبل أن يوقع السمكة في شرك الخطاف الذي نصبه لها ، وقد آلم القش جبهته من حزه

احتكاكه بها ، وقد مسه به العظم أيضاً ، فهبط فوق ركبتيه حذراً ألا يهتز منه الحبل ويرتج ، وزحف قدر إمكانه حتى حنية المركب ، وظل يسحب بيديه تتصل إلى قارورة الماء ، ففتحها وشرب منها قليلاً ، ثم استراح عند الحنية جالساً بين الجزء الأدنى من الصاري والشراع ، وحاول ألا يفكر ، بل آثر أن يوجه كل طاقته في الثبات والجلد والصبر .

ثم نظر خلفه فلم تبد له أية أرض ظاهرة . فقال لنفسه :

ـ هذا لا يهم . . فطالما جئت من « هافانا » ساعة الأصيل في ضوء الشفق الأحمر الذي تنعكس فيه أشعة الشمس وهي تنتقل إلى الضفة الغربية من إقيانوس السماء ، ولا تزال أمامي ساعتان قبل أن تغرب الشمس ، وقد تصعد السمكة قبل ذلك ، فإذا لم تفعل فلعلها تصعد عندما يبزغ القمر ، فإذا لم تفعل فلعلها تصعد مع شروق الشمس . ليس لدي أية تقلصات في عضلاتي ، وأشعر أنني قوي ، إنها السمكة التي تعاني من الخطاف في فمها . . ولكن أية سمكة تلك التي تجرني هكذا ؟ لا بد أن فمها مغلق بإحكام حول السلك . كم أتوق إلى رؤيتها ! أتوق أن أشاهدها ولو مرة واحدة فقط حتى أعرف من يقف ضدي

لم تغير السمكة من خط سيرها ولا اتجاهها طوال تلك الليلة ، كما أدرك العجوز ذلك من مراقبته للنجوم .

اشتد البرد بعد أن غربت الشمس ، وجف عرق الرجل العجوز ، فأحس به بارداً فوق ظهره وذراعيه وساقيه المعروقتين .

وكان قد افترش في أثناء النهار الكيس الذي يغطى به صندوق الطعم ونشره في الشمس ليجف . ولما غربت الشمس ربطه حول عنقه ، وجعله

يتدلى فوق ظهره ، ودفع به تحت الحبل الذي كان يلتف الآن حول كتفيه . فأصبح وسادة للحبل ، ووجد طريقة لينحني إلى الأمام قبالة جنبة المركب . فكان ذلك مريحاً بالنسبة إليه ؛ وفي الواقع كان ذلك الوضع أكثر تحملاً ، ولكنه اعتبره مريحاً تقريباً .

وقال لنفسه :

لا يمكنني أن أصنع شيئاً مع هذه السمكة ، وهي لا تستطيع أن تصنع شيئاً معي طالما بقيت على تلك الحال .

نهض من مكانه ذات مرة واستوى واقفاً ، وبال من فوق حافة المركب ، وتطلع إلى النجوم ليتحسس طريقه .

وكان الحبل الممتد من كتفيه إلى الماء يبدو كشريط ضوئي متألق من الوميض الفوسفوري .

أبطأ المركب في سيره الآن ؛ وبدت أضواء «هافانا» تبدو خافتة ؛ فأدرك أن التيار كان متجهاً بهما صوب الشرق .

وقال في نفسه :

- إذا اختفت أضواء «هافانا» عن ناظري فلا بد أننا موغلون في اتجاه الشرق .

ثم استطرد قائلاً :

- لأنه لو كانت السمكة سائرة في الطريق الصحيح لوجب أن أرى أضواء «هافانا» لعدة ساعات أخرى .

وأردف قائلاً :

- إني لا أعلم كيف ستسفر نتائج بين فريقي « البيسبول » الكبيرين .. ثم يكون ربما أن أعلم ذلك من جهاز راديو وددت أن أملكه !

ثم عاود الحديث مع نفسه قائلاً :

- فكر دائماً فيما أنت فيه .. فكر في عملك .. يجب ألا ترتكب حماقة .

وقال بصوت عالٍ :

- وددتُ أن يكون الصبي معي ليساعدني ، ويرى ذلك الموقف ، يجب ألا يبقى المرء وحيداً إذا تقدمت به السن ، ولكن هذا لا يمكن تلافيه .

وهمس محدثاً لنفسه :

- يجب أن أتذكر تناول التونة قبل أن تفسد ، حتى أحتفظ بنفسي قوياً . ويتذكر أنه يجب أن يأكله في الصباح مهما قلت شهيته للطعام .. تذكر .

وفي أثناء الليل ، طاف زوج من الدلافين حول المركب ، واستطاع أن يسمع أصواتهما وهما يتمايلان ويتقلبان ويتنفسان ويتقافزان مع تمييزه بين الصوت الذي يطلقه الذكر ، وصوت الأنثى .

وقال لنفسه :

- ما أبدعهما ! إنهما يتلاعبان ويمرحان ، ويحب كل منهما الآخر .. إنهما إخوتنا ، كالأسماك الطائرة .

ثم بدأ يشعر بالإشفاق على السمكة الضخمة التي علقت بخطافه .

وجعلت تنتفض قليلاً -

ـ إنها سمكة عجيبة وغريبة ! من يدري كم تبلغ من العمر . لم يحدث قط في حياتي أن ظفرت بسمكة بمثل تلك القوة ، ولا بواحدة تصرفت بمثل السلوك الغريب . . . ربما كانت أحكم من أن تقفز . إنها تستطيع أن تدمرني إن قفزت ، أو إذا هاجمتني هجوماً جنونياً عنيفاً مسعوراً . أو لعلها تعرضت كثيراً من قبل لسهام الصيد . فتعلمت من ذلك كيف تقوم بالقتال . ولكن أنّى لها أن تعرف أنها تُحارب رجلاً واحداً بمفرده ، وأنه رجل عجوز ؟ ترى ماذا يكون حجم تلك السمكة الضخمة ؟ وكم تدر من ربح في السوق إذا كانت ذات لحم طيب ؟ لقد تناولت الطُّعم كسمكة من الذكور ، كما تسحبني مثل فعل الذكر ، وتقاتل بدون أن تُصاب بذعر أو هلع . وإني لأتعجب ، لعلها تمتلك هي أيضاً خطة لذلك ، أم أنها تقاتل يائسة مثلي ؟

وتذكر يوماً وقعت فيه واحدة من زوج من أسماك المرلين الضخمة في شرك خطافه ، ومن عادة السمكة الذكر أن تدع الأنثى تتناول طعامها أولاً . وراحت السمكة الأنثى التي علقت بالخطاف تقاتل بضراوة مذعورة يائسة ؛ وسرعان ما أنهكها ذلك ، واستنفد قواها .

لم ينفصل الذكر عنها ، وظل باقياً بجانبها طوال الوقت ، وهو يعبر الحبل من فوقه ، ويطفو معها إلى سطح الماء ، وبقي الذكر قريباً منها حتى خشي الرجل العجوز أن يقطع الحبل بذيله الذي كان حاداً كالمنجل ، ويشبهه في حجمه وشكله . وعندما خطف العجوز بالرمح ، وضربها بهراوة ، ثم أمسك بمخلب الرمح ذي السطح الذي يشبه ورق الصنفرة ، وعاود ضربها فوق رأسها حتى تحول لونها إلى ما يشبه السطوح الخلفية للمرايا ، ورفعها إلى

سطح المركب بمساعدة الصبي ، فإن الذكر كان يقف بجانب المركب .

وحين كان العجوز يجز الخطاف والحبال من السمكة ، ويعد الرمح ، قفز الذكر عالياً بجوار المركب ، لعله كان يريد أن يرى أين ذهبت السمكة الأنثى ، ثم هبط وغاص في الماء ، وبسط زعنفتيه الصدريتين ذواتي اللون الأرجواني الشاحب على اتساعهما فبدتا كخفقتين . . كان منظره بديعاً ، وظل بجانب المركب .

وقال العجوز يحدث نفسه في تأثر :

ـ كان هذا الذي شاهدته من أقسى الأشياء التي قابلتني ، وأشدها حزناً . ولقد حزن الصبي أيضاً ، وسألنا السمكة الأنثى الصفح ، وذبحناها فوراً بدون إبطاء .

واستأنف العجوز حديثه بصوت مرتفع :

ـ وددت لو يكون الصبي معي

واسند نفسه على الألواح الخشبية المستديرة عند المقدمة ، وشعر بقوة السمكة الضخمة من شدة توتر الحبل المعقود عبر كتفيه ، والمركب يجري في الاتجاه الذي اختارته السمكة .

وعاد يفكر قائلاً :

ـ قدر على السمكة أن تختار على أن أغدر بها .

لقد اختارت أن تمكث في الماء القاتم العميق بعيداً عن جميع الشراك والفخاخ ووسائل الغدر .

ووقع خياري على أن أمضي هناك لأعثر عليه بعيداً عن الناس جميعاً ، فيما وراء البشر أجمعين في رحب هذه البسيطة : وها نحن الآن قد ارتبطنا معاً بمصير واحد منذ الظهيرة ، ولا من معين أو مغيث لأيٍّ منا .

وقال حاسماً :

ـ ربما لم يكن خطأً مني أن أكون صياداً ، ولكنني ولدت من أجل تلك المهنة .

وفجأة قال :

ـ لا شك أنني يجب أن أتذكر أن آكل التونة بعد أن يبزغ الضوء .

وحدث قبل طلوع النهار أن شيئاً ما قد قضم طعم أحد الحبال الخلفية خلفه ، وسمع صوت العصا تتكسر ، واندفع الحبل فوق الحافة العليا من جانب المركب .

أخرج سكينه من غمدها تحت جنح الظلام : واستحمل كل ثقل الجذب الملقى عليه من السمكة المنقضة على كتفه اليسرى ، وانحنى إلى الخلف ، وقطع الحبل فوق خشب الحافة العليا من جانب المركب ، ثم قطع الحبل الآخر القريب منه ، وأحكم ربط الطرفين السائبين للحبل للفتين الاحتياطيتين بعضهما ببعض في الظلام فجعلهما حبلاً واحداً .

كان يعمل بإحدى يديه بمهارة فائقة ، وضغط بقدمه على لفات الحبال لتثبت مكانها ريثما يربط الحبال جيداً . أصبح لديه الآن ست لفات من الحبال الاحتياطية . ثمة عدد لفتين من الحبال تتصلان بكل طعم من التي فصل بعضها عن بعض ، ولفتان أخريان متصلتان بالحبل الذي التهم بطعم

في الخطاف الذي ابتلعته السمكة ، وأصبحت كلها مربوطة بعضها ببعض .

وحدّث نفسه قائلاً :

- عند بزوغ الفجر ، سأتعلم الحبل الذي ينساب إلى عمق مائتين وأربعين قدماً وأجمعه بالحبال الاحتياطية . . كنت على وشك أن أفقد ألفاً ومائتي قدم من الحبال الكتالونية ، والخطاطيف ، والأوزان الرصاصية التي تجرّ السمك إلى الشرك . كل هذا يمكن تعويضه . ولكن من الذي يعوضني عن هذه السمكة إذا علقت بعض الأسماك بخطاطيفي وقطعت حبل تلك السمكة الكبيرة ؟ إنني لا أدري ما نوع السمكة التي ابتلعت الطعم الآن . قد تكون من سمك « المرلين » ، أو من نوع « أبو سيف » (سمك بحري طويل المنقار) ، أو من سمك « القرش » ، لم أحس بها قط ، ويجب عليّ أن أتخلص منها على وجه السرعة .

ثم أردف بصوت عالٍ :

- كم أتمنى أن يكون الصبي معي !

واسترسل في حديثه إلى نفسه قائلاً :

- ولكن الصبي ليس معي . إنك وحدك ، ومن الأفضل لك أن تعمل حتى آخر حبل ، سواء في الظلام أو في غيره ، وعليك أن تقطعه ، وأن تربط لفتي الحبال الاحتياطيتين .

وهكذا قام بتنفيذ ذلك : ولم يكن هذا عملاً سهلاً في الظلام . وحدث أن اندفعت السمكة بعنف دفعة ألقته على وجهه . وأصيب بجرح

قطع تحت عينه : وسال الدم على خده إلى مسافة قصيرة ، ولكنه تجلّط وجفّ قبل أن يصل إلى ذقنه .

مضى العجوز إلى حنية المركب ، واستند إلى الألواح الخشبية . وأحكم وضع الكيس حول عنقه ، وحرك الحبل إلى مكان جديد من كتفيه ، وما إن فرغ من ذلك حتى شعر جيداً بالسمكة تجذبه ، ومد يده في الماء ليدرك مدى تقدم المركب وهو يشق الماء .

وقال متسائلاً :

ـ لماذا جعلت السمكة المركب يتمايل هكذا في الماء ؟ لا بد أن الحبل قد تزلق عن ظهرها الضخم الذي يشبه التل ، ولكنني واثق من أن ظهرها لا يستشعر الألم الحاد الذي أعانيه في ظهري : بيد أنها لا تستطيع أن تجر المركب إلى الأبد ، مهما بلغت ضخامتها .. والآن قد تبدد كل شيء قد يثير المتاعب ، ولدي احتياطي هائل من الحبل ، وهذا كل ما يحتاج إليه المرء .

ثم استطرد قائلاً :

ـ أيتها السمكة ، سوف أبقى معك حتى الموت .

وقال لنفسه وهو ينتظر إطلالة الصباح :

ـ أعتقد أنها سوف تمكث معي هي الأخرى بالمثل .

اشتدت البرودة في الهزيع الأخير من الليل قبيل انبلاج الفجر ، فالتصق العجوز بخشب المركب لعله يجد شيئاً من الدفء .

ثم قال .

ـ إن لي جلداً وصبراً قدر ما لدى هذه السمكة .

ومع انبثاق أول خيط من ضوء الفجر ، كان الحبل ممتداً في عمق الماء ، والمركب يتحرك بثبات .

وحين بدأت حافة الشمس تبرز ، كان الحبل على الكتف اليمنى للرجل العجوز .

وحدّث العجوز نفسه قائلاً :

- إن السمكة تتجه شمالاً ، أما التيار فإنه يمضي بنا نحو الشرق . كم أتوق إلى أن تحول اتجاهها لتسبح مع التيار ! إنها في هذه الحالة يكون قد أصابها الإرهاق .

وحين واصلت الشمس ارتفاعها ، أدرك العجوز أن السمكة لم يحل بها التعب بعد .

كانت هناك علامة واحدة واعدة ، فميل الحبل في الماء كان يشير إلى أن السمكة قد أصبحت تسبح على عمق أقل من ذي قبل ، إن ذلك لا يعني على نحو قاطع أنها تزمع أن تقفز ، ولكنها من الجائز أن تفعل ذلك

وقال العجوز :

- ليت الله يجعلها تقفز ، إن عندي من الحبال ما يكفي للتعامل معها .

ثم استطرد قائلاً :

- ربما إذا استطعت أن أزيد من توتر الحبل قليلاً سيؤلمها ذلك ، وستقفز إلى أعلى . ولكن ما دمنا في ضوء النهار فخير لنكن : وقد يجعلها ذلك تقفز لتملأ مثانتيها الموجودتين على جانبي عمودها الفقري بالهواء ، ثم لا تستطيع بعدئذ أن تغوص في أعماق الماء فتموت

حاول أن يزيد من توتر الحبل ، غير أن الحبل كان مشدوداً إلى أقصاه منذ أن ابتلعت السمكة الخطاف ، وشعر بالألم الناجم عن الحبل الخشن وهو يحز في كتفه عندما انحنى إلى الخلف ليجذبه ، وأدرك أنه لن يستطيع أن يزيد من توتره ، ويجب ألا يهزه هزاً عنيفاً ؛ إذ أن كل هزة من شأنها أن توسع الشق الذي أحدثه الخطاف في حلق السمكة ؛ وإذا قفزت فلربما تلقي بالخطاف بعيداً عنها وتخلصت منه .

وقال العجوز لنفسه :

- وعلى أية حال ، فإني أشعر الآن بتحسن من ذي قبل مع الشمس المشرقة ، على أنه ينبغي لي ألا أحدق فيها .

كانت هناك بعض الأعشاب والطحالب البحرية عالقة بالحبل ، بيد أن الرجل العجوز كان يدرك أنها تخفف قليلاً . السمكة تجر على هذه الحال ، وعنده فسحة من السرور لدى ذلك الخاطر . إنها أعشاب الخليج وطحالبه البحرية التي ينبعث منها وميض فوسفوري في الظلام .

وتوجه العجوز بحديثه إلى السمكة :

- أيتها السمكة ، إني أحبك ، وأكن لك كثيراً من الاحترام ، ولكنني سأمضي بك حتى الموت قبل أن ينتهي هذا اليوم .

ثم قال :

- دعونا نأمل ذلك .

أقبل طائر صغير نحو الزورق ، وكان قادماً من الشمال . . كان من نوع الهازجة ، وهو طائر مغرد ، وحلق على ارتفاع منخفض جداً من الماء . وأدرك العجوز أن الطائر قد أخذ منه الإعياء ، ومسه التعب .

القسم الثالث

حطّ الطائر على مؤخرة المركب ، واستراح هناك ، ثم طار محلقاً فوق رؤوس الرجال المتعبين ، ثم وقف على الحبل حيث وجد هناك أكثر راحة له.

قال العجوز للطائر متسائلاً :

- كم تبلغ من العمر ؟ .. أهذه رحلتك الأولى ؟

تطلع الطائر إليه عندما تحدث . كان متعباً ومرهقاً حتى ليفحص الحبل ويختبره ، ولكنه يتمايل ويترنح فزعه في حين كانت قدماه الرقيقتان تمسكان به بشدة .

قال له العجوز :

- إنه ثابت .. إنه ثابت إلى أقصى حد . ما كان لك أن تبدو منهكاً هكذا في ليلة كهذه بلا ريح .. لماذا تأتي الطيور إلى هنا ؟

وحدث العجوز نفسه قائلاً :

- إن الصقور تخرج إلى البحر لتلتقي بمثل تلك الطيور .

بيد أنه لم يقل شيئاً من ذلك للطائر الذي لا يستطيع أن يفهمه بأية حال ، والذي سرعان ما سيعرف عن الصقور ما فيه الكفاية .

ثم قال للطائر :

- استرح جيداً أيها الطائر الصغير ثم امض إلى حال سبيلك ، وخذ فرصتك كأي إنسان أو طائر أو سمكة .

يشجعه ذلك على الحديث ؛ لأن ظهره كان قد تصلب في أثناء الليل ، واشتد به الألم الآن .

ثم حدّث الطائر مرة أخرى :

- فلتمكث في بيتي إذا راق لك ذلك .

ثم أضاف :

- إنني آسف لعدم استطاعتي نشر الشراع لآخذك فيه مع خطرات النسيم عندئذ ؛ ولكنني مع صديق .

وفجأة تمايل المركب حين جذبت السمكة الحبل على حين غرة فألقت بالعجوز في مقدمة المركب ، وكادت تقذف به خارجه لو لم يتماسك ويستجمع قواه ، وأرخى الحبل بعض الشيء .

انطلق الطائر محلقاً في الفضاء حين اهتز الحبل ، ولم يره الرجل العجوز الذي راح يتحسس الحبل بيمناه في حرص شديد ؛ ولاحظ أن يده تنزف منها الدماء .

فقال بصوت عالٍ :

- إذن فهناك شيء قد آلم السمكة .

وأخذ يجذب الحبل مرة أخرى لعله يتعب السمكة ، وحين بلغ نقطة الحبل تماماً مضت في ثبات في اتجاه مضاد لجذب الحبل .

وعاد يخاطب السمكة :

- إذن فإنك تحسين بالألم الآن أيتها السمكة ، ويعلم الله أنني أحس بالألم أيضاً .

وبدأ الآن يتلفت حوله بحثاً عن الطائر الذي راقت له صحبته : فلم يجد له أثراً .

ويقول العجوز مخاطباً الطائر :

- إنك لم تُطل الإقامة هنا ، ولكن الإقامة فيما أنت ماضٍ إليه أشد قسوة إلى أن تدرك الشاطيء .

عاد العجوز يحدث نفسه :

- كيف تركتُ السمكة تجرحني هكذا بهذه الجذبة السريعة المفاجئة التي قامت بها ؟ لا بد أنني أصبحت في دائرة الغباء ، أو لعلني كنت أبحث عن الطائر الصغير وأفكر فيه ، والآن سأنتبه إلى عملي ، ثم ينبغي لي أن آكل التونة حتى لا تخور قواي .

وقال بصوت مرتفع :

- وددت أن يكون الصبي هنا ، ومعي بعض الملح ؟ . .

نقل ثقل الحبل إلى كتفه اليسرى ، وانحنى بحذر ليغسل يده في مياه المحيط ، وأبقى عليها مغمورة فيها لأكثر من دقيقة وهو يراقب الدم يسيل منها ، وحركة الماء المتواصلة في اتجاه مضاد ليده والمركب تمضي في طريقها .

ثم قال :

ـ لقد تباطأت السمكة في سيرها كثيراً .

وود العجوز أن يضع يده في الماء المالح لفترة أطول ، غير أنه كان يخشى أن تحاول السمكة جذب الحبل فجأة ، فاستوى واقفاً على قدميه وعرض يده للشمس . كان جرحاً طفيفاً من الحبل الذي انغرس في لحمه ، بيد أن الإصابة كانت في الجزء من يده الذي يعمل به . إنه يعرف أنه يحتاج إلى يديه معاً ، إلى أن يتمكن من رفع السمكة من الماء ، وإنه لم يكن يود أن تجرح يده قبل أن يبدأ هذه المهمة .

وحين جفت يده قال :

ـ الآن يجب أن آكل سمكة التونة الصغيرة ، يمكنني أن أجذبها بالرمح ، وأن آكلها هنا في هدوء .

انحنى إلى أسفل وسحب سمكة التونة من مؤخرة المركب بالرمح ، وجرها نحوه متجنباً لفات الحبال . . وشد الحبل إلى كتفه اليسرى مرة أخرى ، واستند على ذراعه ويده اليسرى ، وانتزع سمكة التونة من الرمح الذي أعاده بعد ذلك إلى مكانه . . ووضع إحدى ركبتيه فوق السمكة ، وشرع يقطع شرائح عريضة من اللحم الأحمر القاتم من السطح العلوي لرأس السمكة حتى ذيلها . وكانت الشرائح على شكل أوتاد . ثم أخذ يقطعها بدءاً من العمود الفقري حتى حافة البطن . وعندما انتهى من قطع ست شرائح نشرها على الألواح الخشبية لحافة المركب ، ومسح سكينه في بنطلونه . ثم حمل بقايا جسم السمكة من ذيلها ، وأسقطها إلى الماء وهو يقول :

ـ لا أعتقد أني أستطيع أن آكل سمكة كاملة .

ثم أعمل سكينه في إحدى الشرائح . وكان يشعر بقوة جذب الحبل

الشديدة الوطأة ، وتقلصت يده اليمنى ، فقد توقفت متصلبة من الحبل الثقيل ، ونظر إليه باشمئزاز .

وقال :

ـ من أي صنف أنت أيتها اليد : تقلَّصي إذا شئت ، وتحولي إلى مخلب ، فلن يفيدك هذا بشيء ، ولن تتخلي عن العمل .

نظر العجوز إلى المياه الداكنة عبر امتداد الحبل المائل وقال :

ـ تعـال .

ثم قال :

ـ تناول طعامك الآن فإن ذلك سيقوي يدك ، والخطأ ليس خطأ يدك ، ولكنك أنت الذي قضيت ساعات عديدة مع السمكة . ويمكنك أن تمكث معها إلى الأبد .

وأردف قائلاً :

ـ كُل التونة الآن .

التقط قطعة منها ، ووضعها في فمه ، وجعل يمضغها ببطء ، فوجدها ذات مذاق طيب .

وتابع الحديث مع نفسه قائلاً :

ـ امضغها جيداً : وابتلع كل عصاراتها ، ما كان أحلاها إن تناولتها بعصير قليل من الليمون الحامض ، أو الليمون العادي ، أو الملح .

ونظر إلى يده المتقلصة التي كانت متصلبة حتى أصبحت قريبة من التيبس الذي يصيب الأجساد بعد الموت فقال :

- بم تشعرين الآن أيتها اليد ؟ سآكل مزيداً من الطعام من أجلك .

تناول الجزء الباقي من الشريحة التي كان قد قطعها نصفين ، وجعل يمضغه بعناية ، ثم بصق الجلد الذي كان يغطيه .

وتطلع إلى يده قائلاً .

- كيف حالك أيتها اليد ؟ أم أن الوقت لكي تعرف ؟

وتناول قطعة أخرى كاملة من سمكة التونة ومضغها .

وقال لنفسه :

- إنها سمكة قوية مليئة بالدم . كنت محظوظاً أن أظفر بها بدلاً من الدلفين ، فلحم الدلفين مفرط في الحلاوة ، أما هذه فحلاوتها خفيفة جداً ، ولا تزال قوتها كامنة فيها .

- ومع ذلك ، فلا معنى لأن أكون غير عملي . كنت أرجو أن يكون معي بعض الملح ، ولا أدري إن كانت الشمس ستجففه ما تبقى من الشرائح أو تعفنها ؛ ولذا فمن الأفضل أن أتناولها كلها ، رغم أنني لست جائعاً .

وأكمل حديثه لنفسه :

- إن سمكتي الضخمة هادئة ، وسيرها في اتجاه ثابت منتظم . سآكل جميع الشرائح ، ثم سأكون مستعداً .

وعاد ينظر في يده قائلاً :

ـ اصبري أيتها اليد ، فإنني أصنع ذلك من أجلك .

ثم واصل الحديث مع نفسه :

ـ أود أن أكون متعاطفاً مع السمكة ، فهي تخصني . ولكن لا بد من قتلها ، وأن أحتفظ بقوتي لأتمكن من القيام بهذه المهمة .

تناول العجوز قطع الشرائح ثم ازدردها الواحدة بعد الأخرى ، وفقاً لما أملاه عليه عقله .

شد العجوز قامته ، ماسحاً يده في بنطلونه .

ثم وجه حديثه إلى يده قائلاً :

ـ أيتها اليد .. تستطيعين الآن أن تتركي الحبل ، وسأمسك بمفردي به وحدي حتى تتوقفي عن هذا الهراء ، وذلك السلوك الأحمق .

وضع قدمه اليسرى على الحبل الثقيل الذي كانت اليد اليسرى ممسكة به ، وألقى بظهره إلى الوراء في اتجاه مضاد لقوة الشد ، وقال :

ـ أدعو الله أن يخلصني من تقلص يدي ، لأنني لا أعرف ما تنوي السمكة أن تفعله ، ولكنها تبدو هادئة وتسير وفق خطتها .

ثم تساءل :

ـ لكن ما هي خطتي ؟ يجب أن أرتجلها ، وأن تتفق خطتي ، لأنها سمكة بالغة الضخامة . إذا قفزت فسيكون في إمكاني أن أصرعها ، ولكنها باقية في الأعماق ، وحينئذ سأظل باقياً معها .

وانثنى العجوز إلى بنطلونه يحك فيه يده المتقلصة ، محاولاً أن يلين أصابعه ، ولكنها أبت أن تنفتح .

ويجب أن يخطر أن الشمس ستجعلها تنضج ، أي أعني ذلك سيحدث بعد أن يهضم لحم التونة النيء القوي .

ثم قال :

- وإذا حدث ذلك ، فسأفتح يدي مهما كلفني ذلك من ثمن ، غير أنني لا أريد أن أبسطها الآن بالقوة : إنني سأدعها تفتح بنفسها طوعاً بدون إكراه ، ومن المرجح أنني ظلمتها وأسأت معاملتها ونصبت معها كثيراً في الليل : حين اضطررت إلى فك وحل تلك الحبال .

تطلع العجوز عبر البحر وأدرك مدى ما هو فيه من وحدة الآن ، ولكنه كان يستطيع أن يرى المنشورات الضوئية المتعكسة في المياه القاتمة العميقة ، والحبل الممتد في الظلمة ، والذي يمضي قدماً إلى الأمام ، والتموجات الغريبة للماء وسط الطبيعة الهادئة الساكنة .

وكانت السحب تتجمع في ذلك الوقت إيذاناً بقرب هبوب الريح التجارية .

نظر العجوز أمامه فشاهد سرباً من البط البري فوق الماء يشق طريقه نحو السماء ، ثم يصبح ضبابياً ، ويعود يشق طريقه مرة أخرى في أجواز الفضاء .

إنه لم يعرف إنساناً عانى مثل تلك الوحدة في البحر .

وتذكر كيف أن بعض الرجال كانوا يخشون أن يغيبوا عن مدى البصر من الشاطئ في مركب صغير : وهم يحسون أنهم في شهور يكثر فيها مفاجآت سوء الجو . وهو الآن وسط أشهر الأعاصير المصحوبة بالأمطار والرعود وومضات البرق .

ولكن عندما تمر تلك الأشهر من الأعاصير ، فإن الطقس في أثنائها يكون أفضل من كل أشهر العام .

وقف العجوز في صمت :

ـ إذا كان هناك إعصار على وشك الهبوب فإن المرء إذا كان في البحر فإنه يرى دائماً علاماته بادية في السماء لبضعة أيام . والناس لا ترى ذلك عند الشاطئ ، لأنهم لا يستطيعون عندئذ معرفة ما يتطلعون إليه . كما أن الأرض أيضاً تغير في شكل السحب . ولكن ليس هناك إعصار قادم الآن

وتطلع إلى السماء ، فشاهد أكداساً من السحب البيضاء ذات القوام المنتفخة التي توقع في النفس شعوراً بالرضا والابتهاج . ورأى ريشاً رفيعاً في سحب رقيقة شبيهة بالصوف على ارتفاع شاهق في السماء .

وقال :

ـ ما أروع هذا النسيم !

ثم أكمل حديثه إلى نفسه قائلاً :

ـ الطقس أنسب لي منك أيتها السمكة .

كانت يده اليسرى ما زالت متقلصة ؛ فحاول أن يفكها على مهل قليلاً .

ـ إنني أكره التقلص ، إنه خيانة آتية من ذات جسم المرء .

إنه شيء مشين مخز أمام الآخرين أن يصاب المرء بالإسهال نتيجة التسمم البتومايني الناتج من تناول الأطعمة المعلبة الفاسدة ، أو يتقيأ بسببه ، ولكن تقلص العضلات ، باعتباره تشنجاً فيه إذلال للإنسان ، خاصة إذا كان وحيداً .

ويستطرد قائلاً :

ـ لو كان الصبي هنا لاستطاع أن يُبلل ساعدي حتى تنفرج يدي ، ولكنها لا ريب ستنبسط .

وشعرت يده اليمنى بحركة في درجة انجذاب الحبل قبل أن يشاهد تغير ميله في الماء .

عندئذ انحنى في اتجاه معاكس بجانب الحبل ، وضرب بيده اليسرى على فخذه بقوة وسرعة ، فرأى الحبل يصعد رويداً رويداً .

قال العجوز :

ـ ها هي ذي السمكة صاعدة .

ثم قال متوسلاً :

ـ هيا يا يدي ، أرجو أن تنبسطي .

صعد الحبل إلى أعلى ببطء وثبات ، وبرز ماء البحر على شكل انتفاخ خارج المركب ، وظهرت السمكة وكأن طولها لا نهاية له ، ويتدفق الماء من جنبيها .

كانت تلمع وهي تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها ، وظهر رأسها وظهرها بلون أرجواني قاتم ، وكانت خطوط عريضة ذات لون أرجواني شاحب ، وبدت مقدمة رأسها طويلة أشبه بمضرب « البيسبول » وقد استدق طرفه كسيف ذي حدين . وارتفعت السمكة قامتها من الماء بطولها الكامل ، ثم عادت إلى الماء برفق كالغواص .

شعر العجوز بثقلها الضخم كجسم ثقيل ينزل في الماء ، والحبل يهبط في أثره .

وقال العجوز :

- إنها أطول من مركبي بقدمين .

كان يرخي الحبل بسرعة وانتظام في الماء ، ولم تكن السمكة منذعرة .

بدأ هو يحاول بكلتا يديه ألا يترك الحبل يمتد إلى أبعد مدى ، فهو يعرف أنه إذا لم يستطع أن يحد من سرعتها عن طريق جذبها بانتظام ، فإن مثل تلك السمكة قادرة على أن تمضي بالحبل كله وتقطعه في النهاية .

وقال لنفسه هامساً :

- إنها سمكة ضخمة ، ويجب أن أقنعها كي تهدأ ، وينبغي ألا أدعها تعلم مدى قوتها ، وماذا تستطيع أن تفعله إذا مضت في طريقها بسرعة . لو كنت مكانها لتركت كل شيء الآن ، وأمضي قدماً حتى ينقطع شيء ، ولكن حمداً لله أن الأسماك ليس لها ذكاؤنا نحن الذين نصطادها ، مع أنها أكثر منا نبلاً وقدرة .

شاهد العجوز كثيراً من الأسماك الضخمة التي تزن الواحدة منها أكثر من ألف رطل ، وقد ظفر في حياته باثنتين من ذلك الحجم ، ولكنه لم يكن منفرداً قط .

وها هو ذا الآن ما زال وحيداً وبعيداً عن مدى الرؤية من الشاطيء .

كانت تلك السمكة أضخم من أكبر سمكة رآها ، وأضخم من أي سمكة سمع عنها .

وكانت يد العجوز اليسرى متقلصة كأنها مخلب منقبض لأحد النسور .

استأنف العجوز حديثه إلى نفسه قائلاً :

ـ ومع ذلك ستنبسط يدي المتقلصة . . لا شك أنها ستنبسط لتساعد يدي اليمنى . . هناك ثلاثة أشياء : السمكة ويداي . يجب أن يزول هذا التقلص .

بدأت السمكة في سيرها مرة أخرى ، وعادت إلى سرعتها العادية .

وقال متسائلاً :

ـ إنني لأتعجب لماذا قفزت السمكة إلى السطح ؟ يبدو أنها قفزت كما لو كانت تريني مدى ضخامة حجمها . وإنني أعرف الآن الطريقة التي تفكر بها . وأنا بدوري أريد أن أريها أي نوع من الرجال أنا . ولكنها قد تشاهد يدي المتقلصة . فلأدعها تعتقد أنني رجل أقوى مما أنا عليه ، وسأكون ذلك الرجل .

وقال لنفسه :

ـ ليتني كنت أنا تلك السمكة بكل مواصفاتها وقدراتها وهي تواجه ما عزيمتي وذكائي لا غير .

استند إلى خشب المركب ليستريح ، ووطن نفسه على احتمال معاناته التي يخوضها .

سبحت السمكة بانتظام وثبات ، وتحرك المركب معها رتيباً في مياه داكنة ، وهبت الريح من الشرق فارتفعت مياه البحر ارتفاعاً طفيفاً .

وعند الظهيرة انفرجت يد العجوز فقال :

إني محبة لك أيتها السمكة.

وثبّت موضعه أحسن فوق الأكياس التي تغطي كتفه

كان نشيطاً، ولكنه كان يعاني، غير أنه لا يسمح للآلام على الإطلاق أن تنال منه.

وحدث نفسه قائلاً:

- لست رجل دين تقياً ورعاً، ولكني أبتهل كثيراً إلى الله رب جميع القديسين والقديسات أن أظفر بتلك السمكة

وشرع يردد صلواته بطريقة آلية: من أجل موت هذه السمكة برغم غرابتها.

وأحس بارتياح بعد ترديد صلواته. ولو أن آلامه بقيت على حالها أو اشتدت قليلاً، وانحنى مستنداً إلى الألواح الخشبية خلف الزورق، وبدأ يحرك أصابع يده اليسرى بطريقة آلية.

اشتد قيظ الشمس برغم اشتداد الرياح [illegible]، وقطرات النسيم الرقيقة.

وقال في نفسه:

- من الأوفق أن أعيد وضع الطعم في الحبل الصغير الباقي عند مؤخر المركب، حتى إذا ما عزمت السمكة أن تمكث في الماء ليلة أخرى وجدت ما أنتفع به، وقد يلزم أن أتناول طعامي مرة أخرى، لأن الماء لم يبق منه في القارورة سوى القليل. لا أعتقد أنني مستطيع أن أظفر منه بأكثر من دلعين، وإذا تناولته طازجاً فلا بد لي من ذلك، وأود أن تسقط سمكة طائرة على سطح المركب هذه الليلة، ولكن ينقصني ضوء تجتذبها به.. بل

السمكة الطائرة تكون شهية إذا تناولها المرء نيئة . ولا حاجة بي إلى تقطيعها ، ويجب أن أدخر كل قواي الآن . . يا لله لم أكن أعرف أن تلك السمكة بهذه الضخامة !

ومع ذلك سأقتلها برغم عظمتها وعزتها وتباهيها .

ثم قال :

ـ ولو أن هذا ليس من العدل : ولكنني سأريها ماذا يستطيع الرجل أن يعمل ، وماذا هو يحتمله .

وسكت هنيهة ، ثم أضاف قائلاً :

ـ لقد أخبرت الصبي أنني رجل عجوز عجيب ، والآن قد آن الأوان لإثبات ذلك .

إن العجوز قد أثبت ذلك آلاف المرات من قبل ، وها هو ذا الآن يقوم بإثبات ذلك مرة أخرى . وكانت كل مرة تعتبر جديدة . ولم يحدث قط أن فكر في الماضي في أثناء خوضه ذلك النضال الجديد .

وقال لنفسه :

ـ كم أود أن تنام هذه السمكة حتى أنام أنا الآخر ، وأحلم بالأسود .
لماذا كانت السباع هي الشيء الرئيسي المتبقي في ذاكرتي ؟
واستطرد قائلاً :

ـ كفاك تفكيراً أيها الرجل العجوز . . استرح قليلاً مستنداً إلى ألواح المركب الخشبية ، ولا تفكر في شيء . إن السمكة تعمل . لذا ، أنت فلا تعمل إلا قليلاً ، وبأقل جهد

بدأ وقت الأصيل ، وما زال المركب يتحرك على مهل وباستمرار ، غير أنه كانت هناك الآن سحب كثيرة آتية مع النسيم القادم من الشرق . . وزاد الألم الناجم عن حز الحبال في ظهره .

وذات مرة في هذا الأصيل بدأ الحبل يرتفع مرة أخرى ، ولكن السمكة استمرت تسبح في مستوى يعلو قليلاً من ذي قبل

تركزت أشعة الشمس على ذراع العجوز اليسرى وكتفه ، وفوق ظهره ، فأدرك أن السمكة غيرت اتجاهها إلى الشمال الشرقي .

وإذ كان قد أتيح له أن يرى السمكة في إحدى المرات ، فهو يستطيع أن يتصورها وهي تسبح في الماء بزعنفتيها اللتين تبرزان على اتساعهما كما لو كانتا جناحين ، في حين كان ذيلها الضخم يشق طريقه في الظلام .

ويفكر العجوز قائلاً :

- إني أتساءل عن مدى استطاعتها أن ترى عند هذا المستوى من العمق داخل الماء ، إن عينيها كبيرة ، ويمكن للحصان بعينيه أصغر من عينيها أن يرى في الظلام ، وكنت فيما مضى أرى جيداً في الظلام كما ترى القطة ، ولكن ليس في الظلام الدامس .

كانت الشمس ، وتحريكه المستمر لأصابعه قد بسطا يده اليسرى ، الآن انفرجت انفراجاً كاملاً ، وبدأ توجيه بعض ، من عضلات ظهره ليحتمل الألم الذي يحدثه الحبل المشدود فوقه إلى موضع آخر قريب من المكان السابق .

يصيح الرجل العجوز :

- إذا لم يكن التعب قد حل بك أيتها السمكة فلا شك أنك من أغرب العجائب

كان الرجل لا يكاد قادراً يستقيم من التعب ، وأدرك الآن أن الليل لن يلبث أن يخيم على المكان ، وحاول أن يفكر في أشياء أخرى .

جعل العجوز يفكر في مباريات الدوري النهائية ، وكان اهتمامه مركزاً في الناديين الكبيرين ، فهو يعلم أن فريق " يانكي نيويورك " يبارى " نمور ديترويت " .

وقال لنفسه :

ـ هذا هو اليوم الثاني ، لم تظهر نتائج " اللعب " . ولكني يجب أن أضع ثقتي في " دي ماجيو " العظيم ، ولا بد أن أكون جديراً به . . ذلك الذي يؤدي كل شيء على أكمل وجه حتى إذا اشتد الألم على عظمة كعب

ثم تساءل :

ـ ترى ما هو ألم عظمة الكعب ؟

وقال :

ـ مهماز العقب . . إننا لم نصب به . . أتراه يؤلم في كعب الرجل ألم الديكة عندما تتصارع ؟ لا أعتقد أنني أستطيع احتمال ذلك ، أو أن أفقد عيناً أو عينين كما تفعل الديكة التي تفقد عينيها وهي تتبارز بعضها بعضاً ، ومع ذلك تواصل المعركة . إن الإنسان لا يساوي كثيراً بجانب الطيور الجارحة والحيوانات المتوحشة ، ومع ذلك كنت أوثر أن أكون ذلك الحيوان الموجود تحت سطح البحر في عمق الظلام .

وتحدث الرجل بصوت عال :

- إننا لا نقبل أسماك القرش . أما إذا قبضت فليرحم الله هذه السمكة ، وليرحمني أنا أيضاً .

ثم سأل نفسه :

- أتعتقد أن « ديماجيو » العظيم كان يستطيع أن يمكث مع سمكة كما أمكث أنا مع تلك السمكة ؟ إنني متأكد أنه يستطيع أن يصمد معها أكثر مني ، إذ أنه شاب فتي وقوي ، كما أن أباه كان صياداً . ولكن هل تؤلمه عظمة كعبه كثيراً ؟

يصيح قائلاً :

- إنني لا أعرف ، إذ لم أصب قط بألم في عظمة الكعب .

وحين غربت الشمس ، تذكر ما يعطيه مزيداً من الثقة ، فها هو ذا قد استعاد في ذهنه أيام الحانة في « كازابلانكا » حينما تبارى في لعبة اليد الحديدية مع الزنجي العظيم من « سيانفويجوس » والذي كان أقوى عمال الرصيف الذين يشتغلون بتحميل السفن أو تفريغها ، وقد لعبا نهاراً كاملاً وليلة بطولها يضع كل منهما على خط مرسوم بالطباشير فوق المنضدة ، في حين كان ساعداهما قائمين إلى أعلى ، وقد اشتبكت قبضة يديهما كل على الأخرى . واستمات كل منهما محاولاً أن يثني ساعد الآخر على المنضدة .

كثرت المراهنات عليهما ، وجعل الناس يدخلون ويخرجون داخل الحجرة التي يشع فيها ضوء مصباح الكيروسين ، ونظر « سانتياجو » إلى ذراع ويد الزنجي ، وتفرس في وجهه .

وكان الحكام يتغيرون كل أربع ساعات بعد مضي الساعات الثماني الأولى ، حتى يستطيع كل منهم أن ينال قسطاً من النوم .

طفر الدم من تحت أظافر كل منهما ، وحدق كل منهما في عيني الآخر ، وتطلع إلى يدي وساعد منافسه .

وظل المتفرجون عليهما يجيئون ويروحون داخل الحجرة ، ويجلسون على مقاعد عالية مستندة إلى الحائط وهم يرقبون تصارع الندين .

كانت الجدران مصنوعة من الخشب المطلي باللون الأزرق اللامع ، وألقت المصابيح بظل المتبارين عليها . كان خيال الزنجي ضخماً ، يتحرك على الحائط كلما هزت الريح ذبالات المصابيح ، وراحت كفة كل منهما تتأرجح ذهاباً وإياباً طوال الليل : وكان الناس يسقون الزنجي كؤوس الروم (نوع من الخمر) ويشعلون له لفافات التبغ .

وبعد أن احتسى الزنجي الروم ، اشتد ساعده ، وحاول بذل جهد خارق للتغلب على منافسه .

وكاد يظفر مرة بالعجوز ، الذي لم يكن قد تقدمت به السن : بل كان يدعى « سانتياجو إل كامبيون » (وتعني بالإسبانية سانتياجو البطل) ، وتمكن من ثني ساعده نحو ثلاث درجات . غير أن « سانتياجو » استمات حتى استطاع أن يعيد ساعده إلى استقامته الأولى ، وامتلأ ثقة حينئذ بأنه سيفوز على الزنجي الذي كان بطلاً رياضياً عفياً وقوياً .

وعندما أطل ضوء النهار أراد المتراهنون أن يعتبروا المباراة قد أسفرت عن تعادلهما ، في حين هز الحكم رأسه ، فاستجمع « سانتياجو » قواه ، وأجبر

ساعد الزنجي على الهبوط رويداً رويداً حتى استقرت على خشب المنضدة .

كانت المباراة قد بدأت صباح يوم من أيام الآحاد ، وانتهت صباح يوم الاثنين ، وطالب كثير من الحاضرين بإلحاح أن المتبارين قد تعادلا ، لأنه كان عليهم أن يتوجهوا إلى أعمالهم على الأرصفة حيث يحملون أكياس السكر ، أو إلى شركة " هافانا " للفحم الحجري ، ولولا ذلك لود كل واحد منهم أن يبقى ، وأن تستمر المباراة حتى النهاية .

بيد أن " سانتياجو " قد أنهاها على أية حال ، وقبل أن يشرع أي من العمال في التوجه إلى عمله .

وظل كل شخص عقب ذلك يناديه بالبطل على مدى من الزمن طويل .

وأقيمت مباراة إعادة بينهما في الربيع ، ولكن لم تدفع نقود كثيرة في الرهان عليهما ؛ وفاز " سانتياجو " في تلك المباراة في سهولة ويسر ، إذ أنه أفقد الزنجي " سينفويجوس " ثقته بنفسه في المباراة الأولى .

لم يلعب " سانتياجو " سوى القليل من المباريات ، وتوقف عن ذلك تماماً ، إذ أدرك أنه يستطيع أن يهزم أي منافس ، ولكن على حساب الإضرار بيده اليمنى التي يعتمد عليها في الصيد .

وكان قد حاول أن يمارس بعض مباريات تدريبية بيده اليسرى ، ولكنها خانته ولم تحقق المقصود منها ؛ ولم يعد يثق بها .

يقول في نفسه :

ـ إن الشمس ستدفئها جيداً الآن ، ولن تنقضي مدة طويلة إلا ويذهب البرد في أجنحة الطير

وقال متسائلاً :

ـ لست أدري ماذا تجيء به هذه الليلة .

ومرقت فوق رأس العجوز بعض الطائرات في طريقها إلى مآويها ، وشاهد خلالها بعض دوائر بين سرب الأسماك الطائرة .

نظر العجوز نحو تلك الأسراب قائلاً :

ـ مع تلك الأسماك الطائرة الكثيرة لا بد أن يكون هناك دلفين .

ومشى فوق الحبل ليرى إن كانت هناك فرصة سانحة للظفر بسمكته ، ولكنه لم يفز بطائل ، وظلت على صلابتها ، ورغبتها التي تمسك بخناقها بالهرب

مضى المركب يمضي قدماً عن هول ، في حين كان العجوز يرقب الطائرة حتى غابت عن ناظريه .

قال محدثاً نفسه :

ـ لا بد أن ركوب الطائرة أمر مثير . وبودي لو أعرف كيف يكون منظر البحر من هذا الارتفاع ؟ لا شك أن في استطاعة راكبيها أن يشاهدوا السمك بوضوح إذا لم يطيروا على ارتفاع شاهق . . أتمنى لو أمتطي متن طائرة تحلق ببطء على ارتفاع ألف ومائتي قدم ، وأشاهد الأسماك من حولي . كنت أصعد إلى أعلى الصاري حين كنت مع مركب صيد السلاحف ، ورأيت الكثير من ذلك الارتفاع . كان للدلفين من موقعي هنا يبدو أكثر

خضرة ، ويمكنك أن ترى خطوطه وبقعه الأرجوانية ، وفي استطاعتك أن تشاهد كل أسراب الدلافين وهي تسبح في البحر .

ثم قال :

ـ لماذا تتميز جميع الأسماك السريعة التي تقيم في تيارات القاعة بظهورها الأرجوانية ، وبخطوطها أو بقعها الأرجوانية عادة ؟ حقاً إن الدلفين يبدو أخضر لأنه ذهبي اللون في الواقع ، ولكنه حينما بلغ به الجوع الشديد وينشد الطعام تظهر خطوط أرجوانية على جانبيه مثل الموجودة على سمكة المرلين . ترى أيكون ذلك بسبب الغضب ، أم أنها تظهر عندما يسرع في سيره ؟

وقبيل حلول الظلام مر المركب بجزيرة كبيرة من طحالب السرجس البحرية ، كانت تعلو وتنخفض وتتموج في المياه .

ويعلق أحد الدلافين بخطاف سنارته الصغيرة ، وكان العجوز قد رأى ذلك الدلفين من قبل حين قفز في الهواء ، وهو يبرق ويلمع كقطعة من الذهب الخالص مع الأشعة الأخيرة التي كانت ترسلها الشمس قبيل غروبها . وراح يلتوي ويثب بعنف في الهواء ، وأخذ يقفز ويقفز في حركات اكروباتية خوفاً وهلعاً .

مضى العجوز إلى مؤخرة المركب ، وانحنى ممسكاً بالحبل الكبير بيده اليمنى ، وجذب الخيط الذي يعلق به الدلفين بيده اليسرى وهو يضغط عليه في كل مرة بقدمه اليسرى العارية .

وحين أصبح الدلفين قريباً من مؤخرة المركب وهو يحاول الغوص مندفعاً

دخل الفم ، ويتخبط من جانب إلى آخر في يأس . انحنى العجوز ورفع الدلفين بقضبه الأرجوانية في المؤخرة .

كان الدلفين يعض الخطاف عضات سريعة ، وشكله يتحرك في تشنج وهو يضرب قاع المركب بجسمه الطويل المنبسط وذيله ورأسه ، وظل العجوز يضربه بهراوة على رأسه الذهبية اللامعة حتى ارتعش وسكنت حركته بعد أن زحف إليه الموت ، فخلصه العجوز من الخطاف ، وأعاد وضع طعم جديد بالخيط ، ثم أدخل الخطاف في سردينة ، وطوح بالحبل الصغير في الماء .

رجع العجوز ببطء إلى حنية المركب ، وغسل يده اليسرى ومسحها في بنطلونه ، ثم نقل الخيط الثقيل من يده اليمنى إلى اليسرى ، وغسل يمناه في البحر وهو يرقب الشمس وهي تغرب غاطسة في الأفق البعيد وراء المحيط .

ويتطلع إلى الخيط الكبير المائل في الماء ثم قال :

- إن السمكة لم تغير رأيها قط .

ولكنه لاحظ من حركة الماء فوق يده أنه يتحرك ببطء محسوس ، فقال :

- سأربط المجدافين معاً إلى مؤخرة المركب ، وهذا سيقلل من سرعة السمكة في الليل ، وهذا حسن مع الليل ومعي .

ثم همس لنفسه :

- من الأفضل أن أؤجل شق بطن الدلفين وإخراج أحشائه فترة قصيرة لأحتفظ بالدم داخل لحمه .

صمت برهة ثم أردف :

- سأربط المجذافين بعد قليل لأقيم عائقاً يبطئ من حركة السمكة ، ويحسن أن أدع السمكة هادئة الآن ، وألا أسبب لها مزيداً من الإزعاج في أثناء غروب الشمس ، وهو وقت عصيب بالنسبة لجميع أنواع الأسماك .

جعل العجوز يده تجف في الهواء ، ثم أمسك الحبل بها واسترخى قدر استطاعته ، وترك الجذب لنفسه لينجذب أماماً ، تجاه الألواح الخشبية ، حتى يتحكم شد المركب ويزيد مقاومتها أكثر مما يفعل .

وقال في نفسه :

- إني أتعلم كيف أقوم بذلك ، ولتتذكر أيضاً أن السمكة لم تأكل شيئاً منذ أن ابتلعت من الطعم ، وهي ضخمة وتحتاج إلى طعام كثير . لقد أكلت كل سمكة التونة ، وغداً سآكل الدلفين .

أطلق العجوز على الدلفين اسم « دورادو » (وتعني الذهبي باللغة الإسبانية) .

ثم قال :

- قد آكل بعضاً منه عندما أقوم بتنظيفه ، سيكون أصعب من التونة في المضغ ، ولكن ليس هناك شيء سهل .

وصاح متسائلاً .

- كيف حالك أيتها السمكة ؟

وأضاف :

- إني بخير ، وقد تحسنت يدي اليسرى : ولدي من الطعام ما يكفيني ليلة وما يعقبها من نهار . اسحبي القارب ما شئت أيتها السمكة .

لم يكن في الحقيقة يشعر بأنه في حالة طيبة ، لأن الألم في ظهره – الذي سببه الحبل المشدود فيه – أصبح مبرحاً ، وتطرق إليه الملل حتى كاد يفقده الثقة بنفسه .

وأردف قائلاً –

– لقد مر بي ما هو أسوأ من ذلك بكثير ، لقد جرحت يداي جرحاً عنيفاً ، وزال التقلص من اليد الأخرى ، وساقاي بخير ، وتفوقت على السمكة في مجال التغذية .

سينتشر الظلام الآن .. إذ سرعان ما يهبط الظلام بعد غروب الشمس خلال شهر سبتمبر .

استلقى العجوز على الأخشاب البالية عند حنية القارب ، واستراح بقدر استطاعته ، وطلعت النجوم الأولى في السماء .

لم يكن يعرف اسم نجمة رجل الجوزاء اليسرى ، ولكنه رآها فعرف أنها جميعاً ستظهر بعيداً وتختفي ، وأنه لن يلبث أن يجد أصدقاءه البعيدين .

وصاح قائلاً –

– إن السمكة صديقتي أيضاً ، لم أر أو أسمع قط بمثل تلك السمكة ، ولكن لابد لي من أن أقتلها .

ثم شعر بالأسى من أجل السمكة الضخمة التي ليس لديها ما تقتات به ، غير أن عزمه على قتلها لم يفتر قط برغم حزنه عليها .

ثم همس لنفسه :

– كم من أناس سيطعمهم تلك السمكة ، ولكن هل هم جديرون

بأكلها ؟ كلا . . قطعاً كلا . لا يوجد من هو أهل لتناول لحمها لما أبدته من سلوك رائع ، ووقار ونُبل وسمو .

واستأنف حديثه لنفسه :

ـ يجب أن أفكر الآن في عملية إعاقة سحب المركب . إن لها مخاطرها ومنافعها . سأخسر كمية خيوط ليست بسيطة ، وقد أفقد السمكة إذا بذلت جهودها كي تفلت ، وكذلك يفقد المركب كل خفته بسبب وضع المجدافين مربوطين بالمؤخرة . إن خفة المركب تطيل معاناتي أنا والسمكة ، ولكنها ضمان لسلامتي ، إذ أن سرعة السمكة كبيرة لم تستغلها قط حتى الآن . أما عن الدلفين فيجب علي أن أشق بطنه وأخرج أحشاءه حتى لا يفسد ، وأتناول بعضاً منه لأكون قوياً .

وأكمل حديثه لنفسه قائلاً :

ـ الآن سأستريح ساعة أخرى ، وأرى إن كانت لا تزال صامدة ومستمرة في سيرها باستقامة قبل أن أنتقل إلى مؤخرة المركب لأنجز المهمة التي في عزمي عليها ، وفي نفس الوقت يمكنني أن أرى كيف تتصرف السمكة . وما إذا كانت هناك أية تغييرات تبدو منها . إن طريقة المجدافين حيلة جيدة ، ولكنني بلغت الوقت الذي أعمل فيه على سلامتي . إنها ما زالت صامدة ، وقد رأيت الخطاف في ركن من فمها ، وأنها أحكمت إغلاقه . إن آلام الخطاف لا شيء بالنسبة لآلام الجوع ، ومواجهتها لشيء لا تفهمه .

ثم همس لنفسه :

ـ استرح الآن أيها العجوز ، ودع السمكة تعمل حتى يجيء ما يجب عليك أن تؤديه في الخطوة التالية .

لقد استمر فترة اعتقد العجوز أنها ساعتان . ولم يظهر القمر الآن ، لأنه لا يبزغ في الأفق إلا متأخراً ، ولم تكن لديه وسيلة لتقدير الوقت ، ولم تكن وحدته حقيقية بل هي مسألة نسبية ، ولكنه لا يزال يتحمل جذب السمكة للحبل المشدود في كتفيه .

متكئاً بيده اليسرى على الحافة العليا من جانب حنية المركب ، وركز اهتمامه على مقاومة السمكة أكثر من اهتمامه بالمركب نفسه .

ثم فكر قائلاً :

ـ قد يكون الأمر سهلاً لو استطعت أن أجعل الحبل ثابتاً ، ولكن السمكة يمكنها أن تقضمه وتفلت منه بهزة صغيرة منها . لا بد أن أجعل جسدي وسادة للحبل الذي يجذب المركب ، وأن أكون مستعداً في كل الأوقات لأرخي الحبل له بكلتا يدي .

وصاح مذكراً نفسه :

ـ ولكنك لم تنم حتى الآن أيها العجوز . إنك لم تنم طوال يوم وليلة ، والآن يوم آخر ، فيجب عليك أن تدبر طريقة تنام قليلاً إذا استمرت السمكة هادئة وتسير بثبات وانتظام ، إنك إذا لم تنم فقد يفقد عقلك حدته وصفاءه .

ثم قال :

ـ إني أتمتع بذهن صاف تمام الصفاء . إنني واضح كالنجوم ، ومع ذلك لا بد أن أنام ، إن النجوم تنام ، وكذلك القمر والشمس ينامان ، وحتى المحيط ينام أحياناً في أيام معينة ، حينما لا يكون هناك تيار ، ويبدو صفحته هادئة مسطحة منبسطة .

صمت برهة ثم أردف بعدئذ :

ـ تذكر أن تنام . ويتعين عليك تفكر في ذلك : وابتكر طريقة بسيطة ومؤكدة بخصوص الخيط . والآن هيا نجهز الدلفين : ومن الخطر أن أشد المجاذيف كمعاوق إذا كان لا بد لك أن تنام .

واستطرد قائلاً :

ـ إنني أستطيع أن أبقى بلا نوم : ولكن ذلك خطير أيضاً .

بدأ يزحف إلى الخلف على يديه وركبتيه وهو يتجنب هز السمكة هزاً عنيفاً .

ثم همس لنفسه :

ـ قد تكون هي نفسها نصف نائمة . ولكنني لا أريد لها أن تستريح . يجب أن تستمر في سحب المركب حتى الموت .

واستدار عند مؤخرة المركب جاعلاً يده اليسرى تقاوم توتر الحبل المحكم الشد حول كتفيه . وانتزع سكينه من غمدها بيده اليمنى .

كانت النجوم متألقة ، ورأى الدلفين بوضوح ، ودفع نصل سكينه في رأسه : وجذبه من أسفل مؤخرة المركب . ووضع إحدى قدميه على الدلفين : وبحركة سريعة شق بطنه حتى طرف فكه الأسفل . ثم ألقى بالسكين جانباً . وأخرج أحشاءه بيده اليمنى ، ونظف جوفه ، ونزع خياشيمه ، وشعر بمعدته ثقيلة تكاد تنزلق من يده ، وفتحها فوجد بداخلها سمكتين من نوع الأسماك الطائرة ، وكانتا طازجتين محتفظتين بصلابتهما ، فوضعهما بجانب الأخرى ; وطوح بأحشاء الدلفين وخياشيمه في الماء ، فغاصت تاركة وراءها وميضاً فوسفورياً

كان الدلفين بارداً ، واصبح لونه الآن أبيض جذامياً في ضوء النجوم ، وسلخه العجوز من أحد جانبيه ، وكان يضغط بقدمه اليمنى فوق رأس السمكة : ثم قلبه وسلخ الجانب الآخر ، وفصل الجلد في كلا الجانبين من الرأس حتى الذيل ، وقذف به إلى البحر : ونظر إلى الماء ليرى إن كان يدور كالدوامة ؛ ولكن لم يكن هناك سوى الضوء الذي صاحب الجسد وهو يهبط ببطء في الماء : ثم استدار ووضع السمكتين الطائرتين داخل شريحتي الدلفين ، وأعاد سكينه إلى غمدها ، وزحف ببطء إلى مقدمة المركب .

تقوس ظهر العجوز من ثقل الخيط المشدود حوله ، وحمل شريحتي الدلفين في يده اليمنى .

وضع الشريحتين وبداخلهما السمكتان الطائرتان بجانبه على الخشب عند مقدمة المركب ، ثم نقل موضع الحبل المشدود إلى كتفه إلى مكان جديد ، وأمسك به مرة أخرى بيده اليسرى التي أسندها فوق الحافة العليا من جانب المركب .

انحنى بعد ذلك فوق هذا الجانب ، وغسل السمكتين الطائرتين وهو يلاحظ سرعة الماء وهي تصطدم بيده التي اكتسبت وميضاً فوسفورياً بعد سلخه جلد الدلفين ، كان جريان الماء قد فقد قوة اندفاعه ، وحين حك يده في ألواح مركبه الخشبية طفت حبيبات متفسفرة وانجرفت ببطء خلف مؤخرة المركب .

ولم يلبث أن قال في نفسه :

ـ إن السمكة قد أدركها التعب أو لعلها تستريح .

وأردف :

– لأشرع الآن في أكل جسم هذا الدلفين ثم آخذ قسطاً من الراحة ، وأنام قليلاً .

أكل العجوز نصف شريحة من الدلفين في ضوء النجوم ، واستمر البرد شديداً بالليل ، ثم تناول سمكة طائرة ، وأخرج أحشاءها ، وقطع رأسها ، والتهمها عقب ذلك .

وهمس لنفسه :

– ما أشهى تناول لحم الدلفين مطبوخاً ، وما أسوأ أكله نيئاً .. لن أذهب في مركب أو قارب مرة أخرى بدون ملح أو ليمون حامض .

ثم قال :

– لو كنت شخصاً شديد الذكاء لأقمت رشاشاً من ماء البحر فوق حافة المركب طوال النهار ، حتى إذا جف تكون لي ملح ، بيد أن الدلفين لم يعلق بالخطاف إلا بعد أن أوشكت الشمس على الغروب ، وعلى أية حال فقد كان يعوزني الاستعداد ، ولكنني مضغته جيداً بحيث لن أصاب بالغثيان .

تجمعت السحب في السماء صوب الشرق ، وراحت النجوم التي يعرفها تختفي واحدة وراء الأخرى .

وبدا له كأنه يتحرك في وادٍ ضيق من السحب متصدع الجنبات ، يجري في أثنائه جدول . وسكنت الرياح ، فقال في نفسه :

– سوف يسوء الطقس في مدى ثلاثة أو أربعة أيام ، ولكن ليس اليوم ولا الغد .. تهيأ الآن لتظفر بشيء من النوم أيها الرجل العجوز في الوقت الذي أخلدت فيه السمكة إلى الهدوء ، والتزمت الصبر بانتظام .

أمسك الحبل بيده اليمنى بإحكام ، ورفع بفخذه فوقها ، وانحنى بكل جسمه ملتصقاً بحنية المركب الخشبية .

حرك الحبل المشدود إلى كتفيه ، مسافة قليلة إلى أسفل ، واستند بيده اليسرى فوقه ضاغطاً بها بقوة عليه ، وقال في نفسه :

- إن يدي اليمنى تستطيع أن تظل ممسكة بالحبل طالما كان مشدوداً ، فإذا استرخت في أثناء نومي فإن يدي اليسرى ستوقظني في هذه الحالة . ربما يدي تقبض بقوة وصلابة على الحبل ، ولكن تستطيعه لقد تعودت على تحمل القسوة ، وحتى إذا نمت عشرين دقيقة أو نصف ساعة لما أطلب ذلك !

القسم الرابع

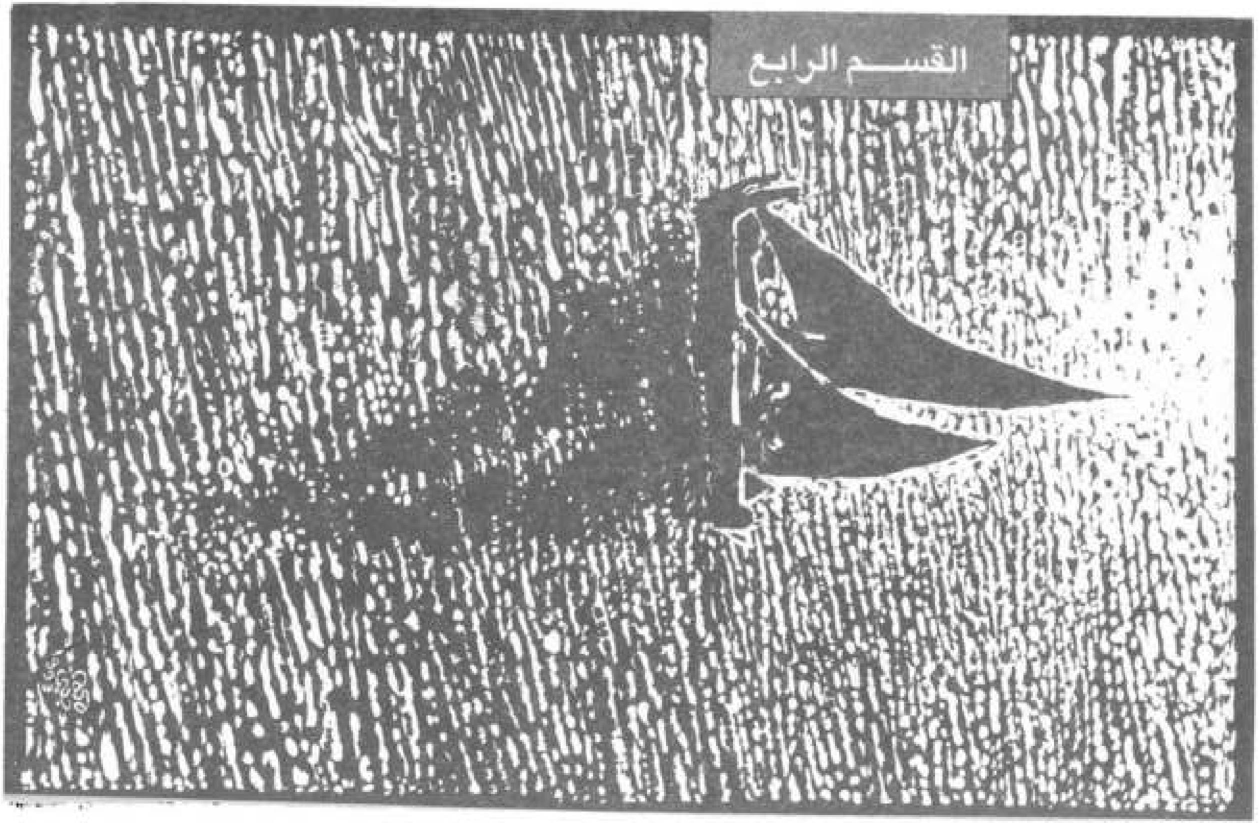

رقـد العجوز مكوماً نفسه على الخشب بكل جسمه ، ملقياً كل ثقله على يده اليمنى ، وراح في النوم .

لم يحلم بالأسود ، بل رأى بدلاً منها سرباً من الدلافين امتد إلى ثمانية أو عشرة أميال ، وأخذت الدلافين تقفز عالياً في الهواء ، ويعود كل منها إلى الحفرة التي شقها في الماء عندما وثب .

ثم رأى فيما يرى النائم بأنه في القرية يرقد في فراشه ، وقد هبت الريح الشمالية فأحس بالبرد القارس ، وشعر بخدر في ذراعه اليمنى التي اتخذ منها وسادة لرأسه .

ولم يلبث أن شرع يحلم بالشاطئ الأصفر الطويل ، ورأى أول الأسود مقبلاً نحو الشاطئ في بداية الليل ، ثم جاءت السباع الأخرى ، وقد أسند ذقنه إلى خشب حنية المركب الذي كان يقف حيث ألقى مرساه في المساء بعيداً عن اليابسة في سهولة ويسر ، وجعل ينتظر ليرى إن كان هناك مزيد من الأسود ، وقد غمرته السعادة .

ظل القمر طويلاً وسط السماء . ولكن الرجل العجوز كان مستغرقاً في نومه ، في حين كانت السمكة تجر المركب بثبات ، ومضى المركب فكأنه يتحرك داخل نفق من السحب

استيقظ العجوز عندما اهتزت قبضة يده اليمنى هزة عنيفة ، وارتفعت حتى لطمت وجهه ، وكان الحبل يؤلمها ألماً شديداً .

لم يكن يشعر بيده اليسرى شيئاً ، ولكنه جذب الحبل بيده اليمنى بكل ما استطاع من قوة ، فانفلت الحبل من قبضتها ، وأخيراً عثرت يده اليسرى على الحبل .

انحنى العجوز إلى الخلف وهو يجذب الحبل الذي ألهب الآن ظهره ويده اليسرى . وكانت يسراه قد تحملت كل العبء الناجم عن الحبل فتوتر الشعور وهو يحز فيها حزاً مؤلماً . ونظر إلى لفات الحبل ليجدها في حالة جيدة .

وفي تلك اللحظة قفزت السمكة قفزة هائلة فانطلقت خارجة من المحيط ، ثم سقطت بعنف ، وعاودت القفز لمرة تلو مرة ، ويمضي المركب في طريقه مسرعاً برغم أن الحبل كان في سبيله للنفاد ، والعجوز يشتد من قوة جذب الحبل إلى أقصى مداه مراراً وتكراراً ، ولم يلبث أن انكفأ على وجهه فوق الشريحة الباقية من الدلفين عند حافة المركب ، ولم يستطع حراكاً .

همس العجوز لنفسه :

ـ هذا ما كنا ننتظره . إذن فلنواجهه الآن ، وسأجعل السمكة تدفع الثمن .. فلتدفع الثمن .

لم ير العجوز وثبات السمكة ، ولكنه سمع الضربات التي تحدثها وهي تشق طريقها منطلقة من المحيط ، وشعر بها بعد سقوطها في الماء من رشاش ثقيل ، وكانت سرعة الحبل تحز في يديه بقسوة ، ولكنه كان يعرف تمام المعرفة أن ذلك أمر قد يحدث ، وحاول أن يجعل الحبل يمر في الأجزاء

القصبة من يده ، إلا أنه يرجع إلى وضع يده ثم يرخي أصابعه .

ثم يقول متحسراً :

ـ لو كان الصبي هنا لأكل فتات الخبز .. نعم لو كان الصبي هنا !

ومضى الخيط يمضي ، يمضي مبتعداً عنه ، ولكن سرعته تتناقص ، واستمر يرخي الحبل للسمكة بوصة بوصة ، ويرفع رأسه الآن عن خشبة القارب خارج شريحة الدلفين التي قطعها تواً وسحبها .

نهض العجوز واتكأ على ركبتيه ثم استوى بجسده ووقف على قدميه ، وأخذ يتخلى عن الحبل رويداً رويداً في بطء ، ويعود إلى حيث يستطيع أن يستشعر بقدميه لفات الحبال التي لم يعد يراها في الظلام .

كان هناك قدر وافر من الحبل ما زال موجوداً ، وعلى السمكة الآن أن تجذب كل ذلك الحبل الطويل خلال الماء .

وحدث نفسه قائلاً :

ـ نعم ، لقد تقلبت الآن أكثر من اثنتي عشرة مرة ، وملأت مثانتها الهوائية عند ظهرها بالهواء ، ولن تستطيع أن تهبط إلى الأعماق لتموت هناك ، فلا أستطيع أن أرفعها ، إنها سرعان ما ستبدأ في الدوران ، وينبغي لي إذن أن أتعامل معها ، غير أن ما يدهشني هو ما الذي أثارها فجأة ؟ أكان الجوع هو الذي أوصلها إلى حافة اليأس ، أم أن شيئاً آخر قد أثار رعبها في الليل ؟ لعلها شعرت فجأة بالخوف ، ولكنها كانت سمكة هادئة قوية ، وبدت جسورة شجاعة لا تعرف الخوف ، وكلها ثقة بنفسها ، فيا له من أمر عجيب !

وخاطب الرجل نفسه قائلاً :

ـ من الأفضل لك أن تكون مقداماً لا يتطرق الخوف إلى قلبك ، وأن تثق بنفسك ، وها أنت ذا تمسك بها مرة أخرى ، ولكنك لا يمكنك أن تأتي بجزء من الحبل ، غير أن السمكة لن تلبث أن تدور في حركة دائرية .

أمسك الرجل العجوز بالحبل المشدود إلى كتفيه بيده اليسرى ، وانحنى مطأطئاً رأسه . واغترف الماء بيده اليمنى ليزيل آثار لحم الدلفين المهروس عن وجهه ، فكان يخشى أن تثير غثيانه ويتقيأ فيفقد قوته . وعندما انتهى من تنظيف وجهه ألقى بيده اليمنى من فوق جانب المركب ، ووضعها في الماء ، وتركها في الماء لراحة في حين كان يرقب الخيط الأول من الفجر قبل شروق الشمس .

ولم يلبث أن قال لنفسه :

ـ إن السمكة تتجه غالباً إلى الشرق ، وهذا يعني أن التعب قد حل بها فسبحت مع التيار : وستدور بسرعة ، وعندئذ تبدأ مهمتنا الحقيقية .

وحين أدرك أن يده اليمنى قد مكثت في الماء مدة كافية ، أخرجها وجففها ، ثم قال :

ـ لا بأس ، إن تحمل الألم من شيم الرجال .

وأمسك بالحبل في عناية واهتمام محاولاً أن يرخي مزيداً من الضغط للحبال الاحتياطية ؛ ويدفع نفسه حتى يتمكن من أن يمد يده اليسرى في البحر من فوق الجانب الآخر للمركب .

ووجه حديثه ليده اليسرى قائلاً :

- إنك لم تتألمي من أجل شيء لا يستحق ذلك ؛ غير أنه قد قابلتني لحظة لم أجدك فيها .

ثم راح يفكر قائلاً :

- لماذا لم أولد بيدين لهما قوة واحدة ؛ ربما كانت غلطتي أنني لم أدرب تلك اليد جيداً . ولكن يعلم الله أنه قد أتيحت لها فرص كافية كي تتعلم ، وكانت لا بأس بها في الليل : ولو أن عضلاتها قد تقلصت ذات مرة ، وليت الحبل يقطعها إذا تقلصت مرة أخرى .

وحين مر بخاطره أن ذهنه لم يعد صافياً ، فكر في أنه ينبغي له أن يمضغ مزيداً من لحم الدلفين .

غير أنه قال لنفسه :

- إنني لا أستطيع . من الخير أن تظل طائشاً مصاباً بالدوار من أن تفقد قوتك نتيجة إصابتك بالغثيان ، وإني أعرف منذ أن كان وجهي ملتصقاً بشريحة الدلفين ، أنني لا أستطيع الاحتفاظ بها إن أكلتها ، غير أنني سأحتفظ بها تحسباً للطوارئ إلى أن يتطرق إليها الفساد ، ولكن الآن قد سبق السيف العذل لمحاولة أن أكتسب القوة عن طريق التغذية .

وهمس لنفسه :

- أنت غبي كُل السمكة الطائرة الثانية .

وكانت هناك نظيفة معدة للأكل .

التقطها العجوز بيده اليسرى ، وأكلها ماضغاً عظامها بعناية ، وتناولها بأجمعها حتى ذيلها .

وقال :

- إنها مغذية أكثر من أية سمكة أخرى ، وتعطيني على الأقل من التغذية الذي أحتاج إليه .

ثم أردف :

- ها أنذا قد فعلت ما في وسعي ، فلتبدأ السمكة تدور ، ومرحباً بالعراك والقتال .

كانت الشمس تشرق للمرة الثالثة منذ نزوله إلى البحر ، حين بدأت السمكة تدور .

لم يستطع أن يرى انحراف الحبل ليدرك أن السمكة كانت تدور ، حيث كان ذلك مبكراً جداً ، ولم يحن وقت ليلحظ ذلك ، وإنما أحس تراخياً خفيفاً في ضغط الحبل ، فبدأ يجذبه بيده اليمنى في رفق ، ويداوم على ذلك .

توتر الحبل في يده كالعادة ، وحين وصل توتره إلى أقصى مداه بدأ في جذب الحبل إلى أعلى ، وبعدما انزلق العجوز بكتفيه ورأسه من تحت الحبل ، وشرع يجذبه بثبات ورفق . واستخدم كلتا يديه وراح يؤرجحهما ، وحاول قدر استطاعته أن يلقي بعبء الجذب على جسمه وساقيه . وقامت ساقاه العجوزان وكتفاه بدور أساسي في حركة الجذب المتأرجحة

قال العجوز :

- يا لها من دائرة كبيرة ، ولكنها تدور بيسر .

ثم توقف عن جذب الحبل إلى أعلى ، إلى أن رأى قطرات الماء تقفز منه

في فمه تشنجاً ، ثم كبح الشعور ، وأرخى له العنان منذ أن ينسحب في الماء القاتم .

وهمس قائلاً :

ـ إنها الآن تمضي إلى أقصى محيط الدائرة .

ثم قال :

ـ ينبغي أن أمسك الحبل بكل قواي ؛ حيث إن توتره يضيق من محيط دائرته في كل مرة ، لربما أراها في مدى ساعة ؛ والآن يجب أن أقنعها ، ثم لا بد أن أقتلها .

ولكن السمكة واصلت الدوران ببطء . وتصبب العرق من العجوز بغزارة ، ونال منه التعب حتى النخاع طوال شوطين آخرين . غير أن الدوران قد زادت ضيقاً الآن . وعرف العجوز من الطريقة التي مال بها الحبل أن السمكة قد ارتفعت ببطء وتعالت في أثناء سباحتها في الماء .

وظل العجوز طوال ساعة يرى بقعاً سوداء أمام عينيه اللتين لفحتا من العرق ، ويتمنع منه أيضاً الجرح الصغير الذي سبق أن أصيب به أعلى عينه ، وكذلك ملح العرق جبهته

لم يكن يخشى تلك البقع السوداء ، فقد كان ذلك أمراً طبيعياً بسبب توتر أعصابه وهو يجذب الحبل ، غير أنه شعر بالإغماء ؛ وأصيب بدوار مرتين ، ثم أمسك نفسه خلال ذلك الإجهاد وقال في نفسه :

ـ محال أن أضعف وتصيبني الوهن وأختنق وأموت أمام سمكة كهذه ، وهي الآن مقبلة نحوي سعياً حثيثاً ، فليساعدني الله على أن أحتمل .

وشعر في تلك اللحظة بحركة مفاجئة ، وبرنة قوية في الحبل الذي كان ممسكاً به بكلتا يديه ، وكان الحبل حاداً قاسياً ثقيلاً .

وقال :

ـ إن السمكة تضرب السلك ، الذي يقيد السمكة إلى الشرك ، بخطمها الطويل الرمحي الشكل ، كان ذلك لا بد أن يحدث ، ولو أن هذا قد يحملها على أن تثب إلى سطح البحر ، وإن كنت أوثر أن تبقى دائرة الآن . إن القفز ضروري لها لتحصل على الهواء ، غير أن كل وثبة تقوم بها تعمل على توسيع فتحة الجرح الذي أحدثه الخطاف ، ويمكنها بذلك أن تلقي بالخطاف وتتخلص منه .

وصاح قائلاً :

ـ لا تقفزي أيتها السمكة ، لا تقفزي .

ضربت السمكة السلك عدة مرات ، وفي كل مرة تهز فيها السمكة رأسها كان العجوز يرخي لها الحبل قليلاً .

وقال لنفسه :

ـ يجب أن أخفف من آلامها ، أما آلامي فلا تهم ، فإنني أستطيع أن أسيطر عليها ، أما آلام السمكة فقد تدفع بها إلى الجنون .

وبعد برهة توقفت السمكة عن ضرب السلك وشرعت في الدوران ببطء مرة أخرى .

أخذ العجوز يجذب الحبل الآن في ثبات ، ولكنه شعر بأنه على وشك الإغماء مرة أخرى ، فاغترف بعض ماء البحر بيده اليسرى وسكبه فوق رأسه ، وعاود فعل ذلك بكمية أكثر من ماء ، ومسح قفاه .

وقال :

ـ لا تقلصات بي الآن ، وسرعان ما ستصعد السمكة ، وإن استطعت أن أصمد ، يجب أن تصمد ولا تستمر في الحديث عن ذلك .

ركع الرجل في حنية المركب ، وفي خفة جعل الحبل ينزلق فوق ظهره مرة أخرى .

وقال في حزم :

ـ سأستريح الآن والسمكة مستمرة في سيرها الدائري ، ثم أنهض زحفاً ، وأتعامل معها عندما تصعد .

تمنى الرجل برغبة كبيرة ليخلد إلى الراحة في حنية المركب ، تاركاً السمكة تتم دورة واحدة بدون أن يسترد شيئاً من الحبل .

غير أنه عندما استدل من توتر الحبل على أن السمكة قد استدارت تصعد صوب المركب ، نهض العجوز مستنداً على قدميه ، وبدأ يجذب ويسترجع وهو يجذب الحبل حتى استعاد كل ما سبق أن أعطاه منه .

وحادث نفسه قائلاً :

ـ إنني في أشد حالات التعب والإعياء الذي لم أعان مثله من قبل ! والآن ها هي ذي الرياح التجارية تهب ، ولكن ما أبدع ذلك ! إنها ستجرف السمكة معها : إنني في حاجة إلى ذلك على نحو يبلغ إلى أبعد حد .

وقال :

ـ سأستريح خلال الدورة التالية للسمكة عندما تمضي في حركتها

الصنارة ، إنني أشعر الآن بتحسن ، وتستطيع معه أن تقوم بدورتين أو ثلاث دورات أخرى .

كانت قبعته المصنوعة من القش منحسرة عند مؤخرة رأسه ، وقبع الرجل في حنية المركب ، ومضى يجذب الخيط حين أحس بالسمكة تدور .

وقال موجهاً حديثه إلى السمكة :

ـ إنك تعملين الآن أيتها السمكة . وسأستحوذ عليك عندما تستديرين .

ارتفع ماء البحر إلى حد كبير ، وكان النسيم يهب وسط طقس معتدل ، وكان ذلك يعوزه ليعود به إلى البر .

ثم قال :

ـ سأدير دفة المركب تجاه الجنوب الغربي . إن الإنسان لا يفقد أبداً في البحر ، والجزيرة طويلة .

وفي الدورة الثالثة كانت السمكة أول ما وقع بصره عليه .

ورآها في أول الأمر كظل قاتم استغرق وقتاً طويلاً ليمر من تحت المركب ، حتى إنه لم يكن يصدق أن تبلغ السمكة مثل ذلك الطول .

وقال :

ـ كلا . لا يمكن أن تكون بتلك الضخامة

ولكنها كانت كذلك ، وعندما انتهت من دورتها ، طفت على سطح البحر على مسافة ثلاثين ياردة فقط من المركب ، وشاهد الرجل ذيلها يبرز

من الماء ، وكان أكثر ارتفاعاً من نصل منجل كبير بلون أرجواني شاحب فوق المياه الزرقاء الداكنة .

ثم انحدر الذيل ، وحين سبحت السمكة تحت سطح الماء مباشرة تمكن العجوز من رؤية جسمها الضخم ، والخطوط الأرجوانية التي تطوقه .

كانت زعنفتها الظهرية منكسة ، في حين كانت زعنفتاها الصدريتان الضخمتان منبسطتين على مدى واسع من الاتساع .

واستطاع الرجل العجوز في هذه الدورة أن يرى عين السمكة ، والسمكتين المصاصتين الرماديتين اللتين كانتا تسبحان حول السمكة الضخمة : وتلتصقان بها تارة ، وتتركانها تارة أخرى مندفعتين بعيداً عنها كالسهم . وفي أحيان أخرى كانتا تسبحان في ظلها بدون أن تسبحا بقوة أو ارتباك .

كان طول كل من السمكتين المصاصتين يزيد عن ثلاثة أقدام . وحين كانتا تسبحان بسرعة فإنهما تتلويان في هذه الحالة بعنف مثل ثعابين الماء .

وها هو ذا الرجل العجوز يتصبب منه العرق بسبب الشمس وغيرها ، ومع كل دورة كانت تقوم بها السمكة في هدوء ورباطة جأش كان الرجل يسترد جزءاً من الحبل ، وكان واثقاً من أنه بعد دورتين أخريين للسمكة ، سيجد فرصة ليطعنها بالرمح .

وقال لنفسه :

ـ ولكن يجب أن أجعلها تقترب وتقترب وتقترب ، وينبغي ألا أحاول طعنها في رأسها ، بل يجب أن أصيبها في القلب

وأراح نفسه .

– كن هادئاً وقوياً أيها الرجل العجوز .

وفي الدورة التالية برز ظهر السمكة خارج الماء ، ولكنها كانت بعيدة قليلاً عن المركب .

وفي الدورة التي تلت بعد ذلك كانت السمكة ما زالت بعيدة ، غير أن ارتفاعها فوق سطح الماء قد زاد .

وأصبح الرجل العجوز على يقين من أنه إذا استرد مزيداً من الحبل يستطيع أن يجعلها بجانب المركب .

وكان قد أعد رمحه منذ وقت طويل ، وكانت لفة الحبل الخفيفة المثبتة بالرمح موضوعة في سلة مستديرة : في حين أن طرفها كان مشدوداً بإحكام بمربط الحبل . . ذلك العمود المعدني عند الحافة الذي تشد فيه الحبال .

قربت السمكة الآن في دورتها هذه نحو المركب هادئة جميلة المنظر ، وكان ذيلها الضخم هو الذي يتحرك .

جذب الرجل العجوز الحبل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى يزداد قُرباً منه .

استدارت السمكة قليلاً حتى أصبحت بجانبه لحظة ثم ابتعدت ، وبدأت دورة أخرى

وقال الرجل العجوز :

– لقد حركتها . . لقد حركتها إذن .

وشعر بالإغماء يعاوده الآن ، ولكنه جذب السمكة الضخمة بكل ما بقي من قوة .

وعاد يقول :

ـ لقد حركتها ، وربما استطعت أن أظفر بها هذه المرة .

ثم قال :

ـ اجذبا يا يديّ ، واثبتا يا ساقيّ . واثبت يا رأسي من أجلي ، . اثبت من أجلي ولا تنهر أبداً في هذه المرة سأظفر بها

وحين بدأ يستجمع كل قوته قبل أن تجيء السمكة في محاذاة المركب ، جذب الحبل بكل قوته ، ولكن السمكة استدارت واعتدلت وسبحت بضعف .

صاح العجوز :

ـ أيتها السمكة ، أيتها السمكة ، إنك ستموتين على أية حال ، فهل تقتلينني معك أيضاً ؟

ثم حدث نفسه :

ـ لا شيء يمكن أن يتم هكذا .

وكان ريقه قد جف حتى أصبح لا يقوى على الكلام ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يصل إلى زجاجة الماء .

وقال العجوز :

ـ يجب أن أجذب السمكة نحوي هذه المرة ، إنني لم أعد أحتمل مزيداً من دوراتها .

ثم قال :

ـ أجل . . إنك . . إنك مازلت قادرة على الصمود !

وكاد يظفر بالسمكة في الدورة الثالثة ، ولكنها عادت واعتدلت مرة أخرى ، وراحت تسبح ببطء مبتعدة عنه ، فخاطبها قائلاً :

ـ إنك تقتلينني أيتها السمكة ، ولكن ذلك من حقك ، فإنني لم أر قط سمكة أضخم ولا أجمل ولا أهدأ ولا أنبل منك أيتها الأخت ، تعالي واقتليني ، فلست أبالي بمن يقتل من .

وهمس لنفسه :

ـ إن ذهنك مشوش الآن ، ويجب أن تحتفظ بعقلك صافياً . احتفظ بصلابته وصفائه ، وتعلم كيف تتحمل الآلام كرجل ، أو حتى كالأسماك .

وقال بصوت لا يكاد يسمعه :

ـ اصفُ يا عقلي . . اصفُ . .

وتكرر نفس الدوران للسمكة مرتين أخريين .

وأحس العجوز في فكره ثقلاً .

ـ لست أعلم لم تفعل هذا ؟ يبدو أنك تريد أن تذهب بعيداً . .

إني لا أعلم ، غير أني سأحاول مرة أخرى

كرر الرجل المحاولة مرة أخرى ، وأدار السمكة ، ولكنها اعتدلت وسبحت على مهل مبتعدة كما تفعل في كل مرة ، وكان فكره ينفصم ويتموج في الهواء .

يعجز العجوز عن إعادة المحاولة مرة أخرى ، برغم أن يديه كانتا الآن قد تلفتا ، لم يعد يستطيع أن يرى إلا لماماً .

أعاد المحاولة وحدث نفس الشيء .

وأحس واعتقد أنه ينهار قبل أن يبدأ ، ولكنه قال :

سأحاول مرة أخرى .

تحمل كل الألم ، واستجمع ما تبقى له من قوة ، وكل كبريائه التي اعتد بها طويلاً ، ووضعها في مواجهة السمكة التي تعذبه الآلام

اقتربت السمكة ، وسبحت برفق في جانب المركب ، وكادت مقدمة رأسها أن تلمس ألواح المركب الخشبية ، وبدأت تتجاوزها طويلة ، غامضة ، عريضة ، فضية ، مخططة بخطوط أرجوانية ، وبدت في الماء كما لو كانت لا آخر لها .

ألقى العجوز بالحبل ، وضغط عليه بقدمه ، ورفع الرمح عالياً قدر استطاعته ، ودفع بكل قواه ، وبكل قوته التي استجمعها منذ هنيهة ، نصل الرمح في جنب السمكة خلف الزعنفة الصدرية الكبيرة التي ارتفعت عالياً في الهواء إلى مستوى ارتفاع صدر الرجل . وأحس بحديد الرمح يخترق جسدها ، فانحنى فوقه دافعاً إياه بكل ثقله ليتوغل داخل لحمها .

ولكن السمكة التي تحمل الموت داخلها ، ظلت حية ، وارتفعت خارج الماء كما لو كانت تستعرض طولها وعرضها الكبيرين ، وكل ما تملكه من قوة وجمال .

وبدت كأنها معلقة في الهواء فوق الرجل العجوز في المركب ، ثم سقطت

في الماء محدثة ضجة عالية ، وانبعث رذاذ ماء البحر فوق العجوز والمركب كله .

شعر الرجل العجوز بالدوار ، وأحس بالسأم ، ولم يعد يرى جيداً ، لكنه أطلق العنان لحبل الرمح : وجعله ينسحب ببطء من بين يديه المتسلختين . وحين استطاع أن يرى ، شاهد السمكة مستلقية على ظهرها ، وبطنها الفضي إلى أعلى .

كانت قصبة الرمح مائلة بزاوية من كتف السمكة ، واستحال لون ماء البحر بلون الدم الأحمر الذي سال من قلبها . كان الدم في أول الأمر قاتماً كلون قطيع من الأسماك في الماء الأزرق الذي تجاوز عمقه الميل ، ثم انتشر الدم كأنه سحابة .

كانت السمكة الفضية اللون ساكنة طافية مع الأمواج .

ألقى الرجل العجوز نظرة خاطفة بالرؤية المتبقية من الإعياء في عينيه ، وأمسك بلفتين من حبل الرمح اللين في وسط القارب حول حلقة المركب ، ووضع رأسه بين يديه وقال :

ـ احتفظ بعقلك ثابتاً .

ثم قال وهو قبالة قوس الحيد الخشبية القوية :

ـ إنني رجل هدته السنين والأعوام . ولكنني قتلت هذه السمكة .. إنها أختي .. وينبغي أن أقوم الآن بعمل مضنٍ .

يجب أن أقوم الآن بإعداد الأنشوطات والحبل لربطها . وحتى لو كنا اثنين وتعاونا لجمعها داخل هذا المركب لما وسعها .

يبقى أن أعد كل شيء ، وأسحبها نحو المركب ، وأربطها جيداً ، وأثبت الصواري بسناد ، وأبحر إلى موطني .

بدأ يجذب السمكة لتقترب بحذاء المركب ، حتى يمكنه أن يمرر حبلاً من خلال خياشيمها ، ويخرجه من فمها ، ويشد رأسها على مقدمة المركب .

وقال :

ـ أريد أن أراها ، وألمسها ، وأتحسسها .. إنها ثروتي .. ولكن ليس ذلك هو السبب الذي أريد من أجله أن أفعل ذلك .

وهمس لنفسه :

ـ أظن أنني أحسست بقلبها عندما دفعت بمقبض الرمح في المرة الثانية ، فلأجذبها إلى هنا لأربطها ، ولأضع الأنشوطة حول ذيلها وأعقدها حوله ، والأخرى حول وسطها لأربطها في المركب .

ثم قال محدثاً نفسه :

ـ هيا إلى العمل أيها العجوز .

وشرب قليلاً من الماء ، وأكمل حديثه قائلاً :

ـ هناك الآن كثير من الأعمال الشاقة بعد انتهاء النزال والقتال .

تطلع إلى أعلى نحو السماء ثم إلى سمكته ، ونظر إلى الشمس بحذر وقال :

ـ إن الوقت لم يتجاوز الظهيرة ، والرياح التجارية تهب ، والآن :

ـ إن الحبال كلها لا تعني شيئاً الآن ، وسوف نصلها معاً بعد ذلك أصلها أنا والصبي عندما نعود إلى البيت .

ونادى السمكة قائلاً :

ـ تعالي أيتها السمكة .

ولكن السمكة لم تأت ، بل كانت ترقد هناك ، وتتخبط في البحر ، وجذب الرجل العجوز المركب نحوها .

وحتى عندما كان مع السمكة ـ وهو يرى رأسها مشدوداً على طول حنية المركب ـ لم يصدق أنها بذلك الحجم الضخم .

فك حبل الرمح من مربط الحبال وأنفذه من خيشوم السمكة ، وأخرجه من بين فكيها ولفه حول مقدمة رأسها المدببة كالسيف ، ثم أنفذ الحبل خلال الخيشوم الآخر ، وعقد لفة أخرى حول مقدمة رأسها ، وعقد الحبل المزدوج وثبته بإحكام في مربط الحبال عند حنية المركب . ثم قطع الحبل ، وأسرع إلى الخلف ليعقد أنشوطة حول الذيل .

وتحول لون السمكة إلى اللون الفضي بعد أن كان في الأصل مزيجاً من اللونين الأرجواني والفضي ، وبدت خطوطها بلون بنفسجي باهت كلون ذيلها ، وكانت أعرض من يد رجل فتح أصابعها عن آخرها .

أما عين السمكة فبدت كمرايا البريسكوب (منظار الأفق المستخدم في الغواصات) أو كقديس في أحد المواكب

وقال الرجل العجوز :

ـ كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لقتلها . إنها الآن تستشعر حالة

أنقص عما كانت عليه وهي في الماء : وقد تدرك أنها لن تغضب ، وكانت ذكية .

ثم قال :

- إن وزنها يزيد على ألف وخمسمائة رطل ، وقد تكون أزيد من ذلك ، فإذا وصل وزنها بعد إعدادها للبيع إلى الثلثين وكان سعر الرطل منها ثلاثين سنتاً فكم تبلغ من أرباح ؟

وأردف قائلاً .

- إنني أحتاج إلى قلم لحساب ذلك ، إن ذهني لم يعد صافياً ، ولكنني أعتقد أن ديماجيو العظيم سيكون اليوم فخوراً بي . إنني لا أحس وخزاً في عظامي ، ولكن يدي وظهري يؤلمانني حقاً ، وإني لأتساءل ما هو وخز العظام؟ قد نكون مصابين به بدون أن ندري .

أحكم العجوز شد السمكة إلى حنية المركب ومؤخرتها ومقعد المجذاف الكائن في الوسط .

تبدو السمكة ضخمة إلى الحد الذي بدا فيه المركب كأنه يجر بجانبه مركباً أضخم منه بكثير .

وقطع جزءاً من الحبل ، وربط به الفك الأسفل للسمكة ، وشده إلى مقدمة رأسها حتى لا ينفتح فمها ، ثم ثبت الصاري بشدة ؛ وباستخدام ذراع التطويل كحامل قاعدة الشراع ، وبمعونة العصا ذات الخطاف فك الحبال التي حول الشراع فانبسط ، وبدأ المركب يتحرك ، واستلقى العجوز عند المؤخرة شبه استلقاء ، وأبحر نحو الجنوب الغربي .

لم يكن بحاجة إلى بوصلة لترشده إلى اتجاه الجنوب الغربي ، كان يحتاج فقط إلى الإحساس بالرياح التجارية ، وانتفاخ الشراع

وقال لنفسه :

– يجدر بي أن ألقي بحبل صغير في البحر بعد أن أزوده بطعم معدني لامع بالخلف ، لعلني أصطاد به شيئاً أمسك به ريقي ، وأشرب بعض الماء أرطب به حلقي .

ولكنه لم يجد طعماً معدنياً ، وكان ما لديه من السردين قد تطرق إليه الفساد ، فحصل على بعض أعشاب الخليج الصفراء التي علقت بخطاف عصاه حينما كانت تسير عائمة ، وهزها لتسقط منها عدد من الجمبري الصغير حول أرضية المركب ، كان عددها أكثر من اثنتي عشرة ، وجعلت تتواثب وتقافز ضاربة الأرض كبراغيث الرمل . فضغط العجوز رؤوسها بين إبهامه وسبابته وأكلها وهو يمضغ قشورها وذيولها ، كانت صغيرة جداً ، ولكنه كان يعرف أنها مغذية ، وذات طعم مستحب .

كان لدى الرجل العجوز جرعتان من الماء في الزجاجة فشرب إحداهما بعد أن تناول تلك الوجبة .

ومضى المركب يسير سيراً جيداً برغم المعوقات ، وكان يدير دفة المركب واضعاً ذراعه تحت إبطه .

كان يستطيع أن يرى السمكة ، وراح ينظر إلى يديه ، ويشعر بظهره المستند إلى مؤخرة المركب ليعرف أن ذلك حدث حقيقة ، ولم يكن حلماً

وفي أحد الأوقات حين شعر بسوء حاله قرب النهاية ظن أن ذلك ربما كان حلماً .

وعندما رأى السمكة تقفز من الماء وتتعلق ساكنة في الهواء قبل أن تسقط ، تأكد له أن هناك أشياء بالغة الغرابة لا يستطيع أن يحسبها . وعندئذ لم يستطع أن يرى جيداً ، أما الآن فقد عادت إليه قوة إبصاره كما كانت دوماً .

يعرف الآن أن هناك كانت السمكة ، وأن يديه وظهره ليست حلماً .

يقول لنفسه :

- إن الأيدي تشفى بسرعة . لقد نزفت يداي ، وستمتص فيه المالحة على آلامها . فمياه الخليج القاتمة هي خير ما تلتئم به الجراح ، وكل ما يجب على أن أصنعه هو أن أحتفظ بصحوة عقلي وصفائه ، وقد أحسنت يداي عملهما ، ونحن نمضي في طريقنا على خير ما يرام ، وبفم السمكة المغلق ، وذيلها الذي يعلو ويهبط على استقامته ، فإننا نبحر معاً كشقيق وشقيقه .

ثم بدأ ذهنه يفقد قليلاً من صفائه فتساءل :

- هل السمكة هي التي تجرني أم أنا الذي أجرها ؟ فإذا كنت أنا الذي أقطرها فليس هناك اعتراض ، وإذا كانت السمكة داخل المركب وقد راح كل جلالها ووقارها فلا اعتراض أيضاً ، ولكننا نبحر معاً ، ونسير جنباً إلى جنب .

يقول العجوز :

- لتجرني السمكة إذا رغبت في ذلك ، إنني أفضلها فقط بسعة حيلتي وقدرتي على خداعها ، وهي لا تريد بي شراً .

سار المركب سيراً حثيثاً في البحر ، وغمر الرجل العجوز يديه في الماء المالح ، وحاول أن يحتفظ بصفاء ذهنه .

كانت هناك سحب عالية مؤلفة من أكداس مستديرة قواعدها منبسطة أفقياً ، وكانت فوقهن سحاب رقيق شبيه بالصوف على ارتفاع شاهق منهن ، فعرف العجوز أن النسيم سيهب طوال الليل .

استمر العجوز يتطلع إلى السمكة ليتأكد من حقيقة ذلك ، ومرت ساعة قبل أن تلطف أول سمكة من أسماك القرش .

لم يكن قدوم سمكة القرش مجرد مصادفة .

لقد صعدت من الأعماق السحيقة حينما انسابت سحابة الدم القاتم وانتشرت إلى عمق ميل في البحر ، فأسرع القرش بالصعود على نحو جازم قاطع بلا حذر ، حتى إنه شق سطح الماء الأزرق في أشعة الشمس ، ثم هبط مرة ثانية إلى البحر ، وإذا به يلتقط رائحة الدم ، فشرع يسبح في الطريق الذي كان يسلكه المركب والسمكة .

كان القرش يفقد الرائحة أحياناً ، ولكنه سرعان ما يلتقطها ثانية أو يحس بأثر ضئيل منها ، فيسبح بسرعة وقوة وثبات في طريق المركب .

كان قرشاً كبير الحجم ، وجسمه ملائم للسباحة السريعة كأسرع سمكة في البحر ، وكان كل ما فيه جميلاً ما عدا فكيه .

وكان ظهره أزرق كزرقة سياف البحر (سمك أرقيانوس ضخم طويل المنقار) ، وبطنه فضياً ، وجلده ناعماً بديعاً . وكانت هيئته مثل سياف البحر فيما عدا فكيه الضخمين المغلقين الآن بإحكام وهو يسبح بسرعة تحت

تستطيع مباشرة ، وزعنفته الظهرية نصلها تنبسط خلال الماء بدون أي تمايل .

وفي داخل شفته المزدوجة المغلقة في فكيه كانت الصفوف الثمانية من أسنانه الهرمية الشكل تنحرف إلى الداخل .

ولم تكن أسنانه كالأسنان الهرمية لمعظم أسماك القرش العادية ؛ وإنما كانت على شكل أصابع الإنسان حينما تنحني فتصبح كالمخالب ، وكانت في طول أصابع الرجل العجوز ، وذات حد قاطع كالموسى من الجانبين

وكانت بنية ذلك القرش ملائمة ليتغذى على كل أسماك البحر ، وكان نوعاً سريعاً قوياً ، مسلحاً تسليحاً جيداً ؛ ولم يكن له أعداء من الأسماك الأخرى .

زاد القرش الآن من سرعته عندما اشتم الرائحة الطازجة للدم ، وراحت زعنفته الظهرية الزرقاء تشق الماء .

وحينما رآه العجوز قادماً عرف أنه من سمك القرش الذي لا يرهب شيئاً على الإطلاق ، وأنه يفعل ما يريده بالضبط .

أعد العجوز رمحه ، وأحكم تثبيت طرف حبله في مربط الحبال في فرع خشبة المركب وهو يرقب القرش قادماً نحوه ، وكان الحبل قد أصبح قصيراً بعد أن نقص منه الجزء الذي قطعه العجوز ليربط به السمكة .

كان ذهن العجوز قد صفا وصار في أحسن حال ، وامتلأ عزماً ، غير أن أمله كان ضعيفاً .

وقال لنفسه :

ـ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

راقب السمكة وهو يرقب دنو القرش ،

وحدث نفسه !

ـ قد من الممكن أن يكون ذلك حلماً آخر الأمر ، لن أستطيع منع القرش من أن يهاجمني ، ولكني قد أظفر به .

يقول :

يا ذا الأسنان   حظاً نحساً لأمك

اقترب القرش من مؤخرة المركب وعندما عض السمكة شاهد العجوز فمه مفتوحاً ، وعينيه العجيبتين ، وطقطقة أسنانه وهي تتحرك حركة سريعة مفاجئة وتطبق على لحم السمكة القريب من ذيلها .

وكان رأس القرش خارج الماء ، وظهره يبرز ، واستطاع العجوز أن يسمع صوت تمزق جلد ولحم السمكة الكبيرة عندما سدد رأس القرش بالرمح في الموضع الذي يتقاطع فيه الخط الممتد بين عينيه مع الخط الممتد من أنفه إلى الخلف .

لم تكن هناك مثل تلك الخطوط ، فقد كان هناك فقط رأسه الأزرق الضخم الثقيل : وعيناه الكبيرتان ، وفكاه اللذان يلتهمان كل شيء ، وقد اصطكت أسنانهما حتى انغرزت في اللحم .

غير أن الموضع الذي طعنه فيه العجوز كان موضع المخ .

طعنه العجوز بيديه المرتعشتين اللتين سالت دماؤهما ، ويغرز فيه الرمح بكل قواه .

قد تكون ضربة بلا أمل : ولكنه سددها بعزم وتصميم ، وجمع فيها كل حقده وحبه وعدوانيته الشديد .

تأرجح القرش ، ورأى العجوز عينيه وقد غاضت منهما الحياة .

وتأرجح مرة أخرى ، ولف نفسه في أنشوطتين من الحبل .

وعرف العجوز أن القرش قد مات .

غير أن القرش لم يتقبل الموت بتلك السهولة .. انقلب على ظهره وذيله يلطم الماء : وفكاه يطقطقان ، وشق سطح الماء كقارب من قوارب السباق .

بدا الماء أبيض اللون حيث كان القرش يلطمه بذيله ، في حين برزت ثلاثة أرباع جسمه بوضوح فوق الماء : حينئذ توتر حبل الربط ، وارتعش ثم انقطع .

ورقد القرش في هدوء لفترة قصيرة طافياً فوق سطح الماء : وظل العجوز يراقبه .

ثم بدأ القرش يهبط إلى أسفل ببطء شديد .

وقال العجوز بصوت مرتفع :

- لقد نال أربعين رطلاً .

ثم أردف :

- وأخذ رمحي أيضاً ، والحبل كله ، وها هي ذي الدماء تسيل من سمكتي مرة أخرى ، وسيجذب ذلك أسماك قرش أخرى .

لم يرق له أن ينظر إلى السمكة بعد ذلك منذ أن بتر القرش جزءاً من جسمها ونكّل بها وشوّهها . وعندما نهش جسمها كان كأنه ينهش لحمه .

وقال :

- ولكنني قد قتلت القرش الذي هاجم سمكتي ، وكان أضخم قرش رأيته في حياتي ، ويعلم الله أنني سبق أن رأيت قروشاً ضخمة من ذلك النوع .

وهمس قائلاً :

- إن مصادفتي للسمكة الكبيرة تعتبر أملاً كان أبدع من أن يطول ، إنني الآن أتمنى لو أن ذلك كان حلماً ، وأن السمكة لم تعلق بصنارتي ، وأنني كنت وحدي في فراشي أرقد فوق الجرائد .

ثم إنه عاد يقول لنفسه :

- ولكن الرجل لم يخلق لكي يُهزَم ، قد يتحطم الرجل إلا أنه لا ينهزم ، ومع ذلك فإنني آسف لأنني قتلت السمكة .

ثم قال :

- والآن سيجيء الوقت العصيب ، وليس معي حتى رمح . إن ذا الأسنان قاسٍ وقوي وقادر وذكي ، ولكنني كنت أذكى منه .

وقال مستدركاً .

- ربما أنني أذكى منه . . ربما كنت فقط أفضل تسلحاً منه .

وصاح قائلاً :

- لا تفكر أيها الرجل العجوز ، ابق في ذلك الطريق ، وواجه ما قد يحدث .

واستطرد قائلاً :

- ولكن يجب أن أفكر ، فالتفكير هو كل ما بقي لي . التفكير والبيسبول ، ترى لو شاهد كيف سيتذوق ديماجيو العظيم الطريقة التي أصبته بها الحربة في مخه ؟

وتابع :

- لم يكن هذا شيئاً عظيماً ، فأي رجل يستطيع أن يفعل ذلك . ولكن هل تظن تقلص يدي شيئاً أسوأ من نتوء عظام الكعوب ؟ لست أدري . إنني لم أصب قط بشيء في كعبي إلا في تلك المرة التي لسعتني فيها سمكة الراي اللاسعة في كعبي عندما لامستها وأنا أسبح ، فشلت الجزء الأسفل من ساقي ، وسببت لي آلاماً لا تحتمل .

ثم انثنى يحدث لنفسه .

- فكر في شيء مبهج أيها الرجل العجوز ، فكل دقيقة تمضي تقربك قرباً من البيت ، وأنت تبحر خفيفاً بعد أن فقدت السمكة أربعين رطلاً من وزنها .

كان العجوز يعرف جيداً ما يمكن حدوثه عندما يصل إلى عمق التيار ، ولكن لم يعد أمامه ما يفعله الآن ، إذ لا حيلة له في هذا الأمر .

ولكنه استدرك صائحاً .

- نعم لديَّ ما أفعله ! إذ يمكنني أن أربط سكيني في النهاية الخلفية لأحد المجدافين .

فعل ذلك ، وكانت ذراع الدفة تحت إبطه ، وحبال الشراع تحت قدمه

وقال لنفسه :

- إنني الآن رجل عجوز ، ولكنني لست مجرداً من السلاح .

القسم الخامس

كان النسيم منعشاً في ذلك الوقت ، وكان يبحر على نحو ما يرام. تطلع العجوز إلى الجزء الأمامي من السمكة ، فعاوده الأمل .

يفكر قائلاً :

ـ من السذاجة والحماقة أن يفقد المرء الأمل ، هذا بجانب أنني أعتقد أن اليأس خطيئة .

ثم أردف :

ـ لا تفكر في الخطيئة ، فلقد سبق السيف العذل ، والوقت متأخر الآن . لقد ولدت لأكون صياداً ؛ كما أن السمكة قد ولدت لتكون سمكة . كان القديس بطرس صياداً . كذلك كان والد ديماجيو العظيم صياداً .

ولكنه راق له أن يفكر في كل الأشياء المحيطة به . ولما كان لا يوجد لديه ما يقرؤه ، وليس معه « راديو » فقد استغرق في التفكير ، وواصل التفكير في الخطيئة .

وقال لنفسه :

ـ إنك لم تقتل السمكة فقط من أجل أن تبقى ، وتبيعها كغذاء

لكن من أجل إرضاء كبريائك واعتدادك بنفسك ، ولأنك صياد .. لقد أحببتها وهي حية ، وأحببتها بعد أن فارقت الحياة ، وإذا كنت تحب فهل قتلك لها يعد خطيئة ، أو أن ذلك شيء أكبر من الخطيئة ؟

وصرخ العجوز قائلاً :

ـ إنك تفكر أكثر من اللازم أيها الشيخ العجوز ، ولكنك استمتعت بقتل أبي الأسنان ، إنه يعيش على الأسماك التي تعيش منها أنت الآخر ، وهو ليس نهماً يقتات بالقمامة ، أو مجرد شهية متحركة من أجل تقضم مثل بعض أسماك القرش ، إنه جميل ونبيل ولا يهاب شيئاً .

ثم قال بصوت مرتفع :

ـ لقد قتلته دفاعاً عن النفس ، وقد أحسنت قتله .

وأردف :

ـ هذا بسبب أن كثيراً من الأشياء تقتل بعضها من الأحياء بطريقة ما ، إن صيد الأسماك يقتلني مثلما يحفظ حياتي تماماً .

ثم تفكر قائلاً :

ـ إن الصبي يحرص على حياتي ، ولا يجدر بي أن أخدع نفسي كثيراً .

انحنى فوق جانب المركب ، واقتلع قطعة من لحم السمكة في الموضع الذي نهشه القرش ، ومضغها مفكراً في طعمها وحسن مذاقها .

كانت متماسكة وذات عصير له نكهة مثل طعم لحم الماشية ، غير أنها لم تكن من اللحوم الحمراء ، ولم يكن بها خيوط وألياف ، لهذا عرف أنها ستنفق

عليه أغلى الأسعار في السوق . ولكن لم تكن هناك طريقة لمنع تبدل اتجاهها خلال مياه البحر . وكان العجوز يدرك أنه مقبل على وقت عصيب .

كان النسيم يهب رتيباً منتظماً ، وتحول قليلاً نحو الشمال الشرقي ، فعرف العجوز أن ذلك يعني أنه لن يتوقف .

رنا العجوز ببصره إلى الأمام ، فلم يتمكن من رؤية أية أشرعة ، أو سفن أو دخان أية باخرة .

كانت هناك الأسماك الطائرة التي تنطلق هاربة من تحت مركبه متجهة في كلا الجانبين ، وبقع طحلب الخليج الصفراء . ولم يكن يرى أي طائر .

أبحر العجوز بمركبه ساعتين ، قابعاً عند المؤخرة ؛ وهو يمضغ قطعة من لحم سمكة المارلين بين حين وآخر محاولاً أن يخلد إلى الراحة ، وأن يستعيد قوته حين لمح سمكتي قرش ، فصاح بصوت عال كالذي ينبعث من إنسان بدون إرادته حين يشعر بمسمار ينفذ في يده وفي الخشب .

لقد رأى الآن الزعنفة الثانية آتية في إثر الأولى ، واستطاع تمييز صنفي سمكتي القرش بأنها من النوع ذي الأنف الشبيه بالمجرفة ، وذلك بعد أن لاحظ أن زعنفة بنية اللون ومثلثة الشكل ، ومن حركات الذيل تقريباً .

لقد أحست سمكتا القرش برائحة الدماء فهاجتا ، واختلط عليهما الأمر بشدة جوعهما ، فهي تعثر على منبع الرائحة وتضلها في غمرة اهتياجها ، غير أنها كانت طوال الوقت تقترب .

ضغط الرجل العجوز بقدمه على حبل الشراع بشدة ، وثبت ذراع الدفة ، ثم تناول المجداف الذي ربط السكين في طرفه ، ورفعه بخفة قدر

استطاعت يده ، كانت يداه قد تحررتا من الألم . بسط يديه ثم أغلقهما حول المجداف بخفة متحرزتين ، ثم أغلقهما بإحكام لعله يخلصهما من الألم ، وحتى لا يخذلاه في العمل ، ويعجز عنه ، وراقب مجيء سمكتي القرش .

يستطيع الآن أن يرى رأسيهما المفلطحين ومقدمتيهما الشبيهة بالمجرفة ، وزعنفتيهما الصدريتين العريضتين ذواتي الأطراف البيضاء .

كانتا من أسماك القرش التي تتميز بالشراسة ، وبكريه الرائحة ، والتي تقتات بالقمامة ، وتتميز بالقتل أيضاً ، وعندما يعضها الجوع بنابه فإنها قد تعض مجداف أحد الزوارق أو دفته .

وهذا النوع من أسماك القرش هو الذي يقضم أرجل السلاحف ، ويقتلها عندما تكون نائمة على سطح الماء ، كما أنها تهاجم الإنسان وتنقض عليه وتهلكه إذا كانت جائعة ، حتى إذا كان ثوبه غير عالقة به رائحة دماء الأسماك أو المادة اللزجة أو الغروية التي تفرزها السمك .

صرخ العجوز قائلاً :

- يا أسماك القرش الرشيقة هيا .. تقدمي .

كانتا قد أقبلتا ، ولكنهما لم تجيئا كما جاء القرش أبو الأسنان من قبل : لقد استدارت إحداهما ، واختفت عن ناظري العجوز ، تحت المركب .

شعر العجوز بالمركب يهتز عندما قفز القرش وجذب السمكة .

أما القرش الآخر فقد أخذ يرمق العجوز بعينيه الصفراوين المشقوقتين كما لو كانتا شقين مفرغين ، ثم أسرع نحوه بالفكين اللذين لهما شكل نصف دائري ، وقد اتجه نحو أسفلها ، لينقض على الجزء النيء من السمكة المقضومة .

كان هناك خط واضح يمتد من قمة رأسه البني حتى الظهر حيث يتصل المخ بالحبل الشوكي ، فطعن العجوز في مكان ذلك الاتصال بالسكين المثبتة في المجداف ثم سحبها ، وسدد إليه طعنة في عينيه الصفراوين .

ترك القرش السمكة ، وانزلق هابطاً في الماء وهو يبتلع ما قضمه من لحمها في حين كان يعاني سكرات الموت .

كان المركب ما زال يهتز والقرش الآخر يلتهم السمكة ، فأرخى العجوز العنان لحبل الشراع فتأرجح المركب بشدة ، فصعد القرش من تحته ، وعندما رأى العجوز القرش انحنى فوق جانب المركب وضربه بشدة ، ولكنه نخس اللحم فقط ، فالجلد كان سميكاً ، ولم تنفذ السكين فيه إلا على نحو ضئيل ، وبشق الأنفس ، ولم تؤلم الطعنة يدي العجوز فحسب ، بل أوجعت كتفيه أيضاً .

ولكن القرش صعد مسرعاً ، وبرز رأسه من الماء ، فطعنه العجوز طعنة قوية نهائية قاتلة في مركز الجزء المسطح من رأسه ، فسقط أنفه في الماء ، واستقر فوق السمكة .

سحب العجوز نصل سكينه ، وطعن القرش مرة أخرى في نفس الموضع . وكان القرش ما زال معلقاً بفكيه في السمكة ، فطعنه العجوز في عينه اليسرى ، وظل القرش معلقاً هناك .

قال العجوز :

ـ كلا .

ودفع النصل بين الفقرات والمخ ، كانت طعنة سهلة هذه المرة ، وأحس بالغضروف يتقطع ويتمزق .

ففك العجوز المجذاف ، ووضع السكين بين فكي القرش ليفتحهما ، وحين تخلص فانزلق القرش تاركاً السمكة .

فقال العجوز :

- اذهب أيها القرش الرشيق : اهبط إلى عمق ميل ؛ اذهب لترى صديقك ، وربما كانت أمك .

مسح العجوز نصل سكينه ، وأعاد المجذاف إلى موضعه ، وثبت حبل الشراع ، الذي نفخ بالهواء ، وجعل المركب يسير في طريقه .

وصاح العجوز :

- لا بد أنها قد أكلت ربع السمكة ؛ وهي أجود الأجزاء فيها . ليت ذلك كان حلماً ، وأنني لم أصطد تلك السمكة . إنني آسف لك أيتها السمكة . فقد ساء كل شيء .

سكت الرجل عن الكلام ، ولم تطاوعه نفسه على النظر إليها الآن .

وبرغم الدماء التي تنزف منها ، وتلاطم الأمواج فوقها ، فهاهو لون ظهرها الفضي الذي يشبه المرآة ظاهراً ، وكذلك خطوطها كانت واضحة .

ومضى قائلاً :

- ما كان لي أن أتوغل هكذا بعيداً في البحر أيتها السمكة ، لا من أجلك ولا من أجلي : أنا آسف أيتها السمكة !

ثم قال لنفسه الآن :

- انظر إلى الرباط الذي يشد السكين بالمجذاف لترى إن كان قد تمزق ،

ثم اجعل يديك متأهبتين للعمل ، ودعنا ننتظر هناك لنرى ما سيقابلك .

اطمأن الرجل على الرباط الذي شد به السكين فوق طرف المجداف ، ثم قال :

ـ كم وددت أن يكون معي حجر لأشحذ عليه السكين .

ثم انثنى يقول مرة أخرى :

ـ كان ينبغي أن أحضر معي حجراً .

وأجاب نفسه :

ـ كان يجب أن تحضر أشياء كثيرة ، ولكنك لم تحضرها معك أيها العجوز . على كل حال ليس هذا أوان التفكير فيما ليس معك ، فكر فيما يمكنك أن تصنعه بما هو موجود لديك .

وقال لنفسه بصوت عالٍ .

ـ لقد أسرفت في إعطائي النصيحة والمشورة ، وقد تعبت منها .

ووضع ذراع الدفة تحت إبطه ، وغمس كلتا يديه في الماء في حين كان المركب يمضي قدماً .

ثم قال :

ـ يعلم الله كم تناول القرش الأخير من لحم السمكة ، ولكن المركب أصبح أخف الآن .

لم يعد يريد أن يفكر في الجزء السفلي الممزق من السمكة ، إنه يعرف أن كل ضربة من وثبات القرش كانت لحماً يُمزّق ويُنتزع من السمكة التي نشبت

رائحة ممتدة في الماء تجلب كل أسماك القرش في مسار عريض كطريق عام .

فكر العجوز قائلاً .

ـ كانت سمكة كافية لأن يعيش الرجل طوال الشتاء بما تدره من ربح ورزق .

ـ لا تفكر في ذلك ، استرح الآن ، وحاول أن تحتفظ بيديك قويتين لتدافع عما تبقى من السمكة ، إن رائحة الدم في يديك لا تعني الآن شيئاً بالقياس إلى كل رائحة السمك المنتشرة في الماء ، هذا بالإضافة إلى أن يديك لا تنزفان كثيراً ، وقد يمنع ذلك النزف اليد اليسرى من التقلص .

وقال لنفسه :

ـ ماذا يمكنني أن أفكر فيه الآن ؟ لا شيء . يجب ألا أفكر في أي شيء ، وأن أنتظر مجيئهم ، كم أتمنى أن يكون ما فات حلماً حقيقياً ، ولكن من يدري ؟ لعل الأمر ينتهي على خير وجه .

جاء قرش آخر من النوع ذي الأنف الذي يشبه المجرفة . أتى عبر الطريق كالخنزير ، إذا كان له فم من الاتساع بحيث يسمح لك بأن تضع رأسك فيه .

لقد ترك العجوز يهاجم السمكة ثم طعنه في مخه بالسكين المشدودة ، لكن القرش قفز إلى الخلف ، وهو يتمايل ويترنح ، فانقصف نصل السكين .

توجه العجوز إلى الدفة ، ولم يراقب القرش وهو يغوص ببطء في الماء ، وحجمه يتناقص من حجمه الطبيعي إلى حجم أصغر حتى صار بالغ الصغر .

كان ذلك المشهد يفتن الرجل العجوز دائماً ، أما الآن فلم يعن حتى بالنظر إليه .

وقال العجوز :

- لديّ الآن المطاقة الذي أستعمله لرفع الأسماك الصغيرة ، غير أنه لا يرجى منه شيء بعد فقدي المجذافين ، وذراع الدفة ، والهراوة القصيرة .

ويضيف العجوز :

- الآن قد تغلبت القروش عليّ ، إنني أعجز من أن أضربها بالهراوة حتى الموت ، ولكنني سأحاول ذلك طالما كان معي المجذافان والهراوة القصيرة وذراع الدفة .

وضع يديه في الماء مرة أخرى لتنظيفهما ، كان الوقت متأخراً بعد الظهر ، وهو لا يرى شيئاً سوى البحر والسماء .

ازداد هبوب الرياح في السماء أكثر من ذي قبل ، وسرعان ما راود العجوز الأمل في أن يرى البر .

وقال لنفسه :

- لقد حل بك التعب أيها العجوز ، وأنت متعبٌ من الداخل .

لم تعاود القروش مهاجمته حتى قبيل غروب الشمس .

شاهد العجوز الزعانف البنية قادمة عبر الطريق العريض الذي تصنعه السمكة في الماء برائحة دمائها .

لم تكن القروش تتبع الرائحة ، ولكنها كانت تتجه رأساً إلى المركب وهي تسبح جنباً إلى جنب .

فدفع ذراع الدفة بقوة ، وثبّت حبل الشراع بإحكام ، وبلغ مؤخرة المركب من أجل الهراوة . . كانت يد مجداف حطم منها جزء فبقي مكسوراً ، وقطعت بمنشار ، فأصبح طولها نحو قدمين ونصف القدم . إنه يستطيع أن يستخدمها بيد واحدة فقط بسبب صغر مقبضها ، وأمسكتها يده اليمنى وهو يثني أصابعه عليها بإحكام ، في حين كان يرقب مجيء القروش .

وجاءت سمكتا قرش من نوع القرش الرقيق .

وفكر قائلاً :

- يجب أن أدع أولى يعض أسنانه جيداً في السمكة ، ثم أضربه على طرف أنفه ، أو على استقامة الجزء العلوي من رأسه .

وتقدمت القرشتان معاً . وحين شاهد أقربهما إليه يفتح فكيه ويغرزهما في جانب السمكة الفضي ، رفع الهراوة عالياً وأهوى بها ضربة عنيفة قوية على الجزء العلوي من رأسه العريض ، فشعر به كأنه جسم مطاطي عندئذ صوت الهراوة قوية ، كما أحس أيضاً بصلابة عظامه ، فسدد للقرش ضربة قوية أخرى فوق طرف أنفه ، فانزلق مبتعداً عن السمكة .

أما القرش الآخر فكان يسبح جيئة وذهاباً ، واقترب الآن مرة أخرى بفكيه مفتوحين .

ورأى العجوز قطعاً من لحم السمكة تتساقط بلونها الأبيض من زاوية فكيه حين انقض عليها ، وأطبق بأسنانه على جسمها .

فلوح العجوز بالهراوة ، وأهوى بها على رأسه ، فتطلع إليه القرش ، وانتزع اللحم من فمه .

لوح العجوز بهراوته ، وأهوى بها عليه مرة أخرى ، فانزلق مبتعداً ليبتلع ما تبقى في فمه . . ارتطمت الهراوة فقط بالجزء المطاطي من رأس القرش .

وقال العجوز :

ــ تعال أيها القرش الرشيق ، اقترب مرة أخرى .

جاء القرش باندفاع شديد ، فضربه العجوز حين أطبق فكيه على لحم السمكة بقوة ، ومن أعلى مستوى استطاع أن يرفع إليه هراوته ، وأحس هذه المرة بالعظمة الموجودة عند قاعدة المخ ، فضربه مرة أخرى في نفس الموضع ، في حين كان القرش يمزق لحم السمكة ، فأفلتت منه ببطء ، وانزلق إلى أسفل تاركاً السمكة .

أخذ العجوز يرقب مجيء القرش ، ولكن لم يظهر أي منهما . ولم يلبث أن رأى واحداً فوق السطح يسبح وهو يعوم في حركة دائرية : ولم ير زعانفه .

وقال العجوز لنفسه :

ــ ما كنت أتوقع أن أقتلها ، كنت أستطيع ذلك أيام الشباب ، ولكنني أذيتهما أيما إيذاء ، ولن تقوم قائمة لأي منهما ، لو كان معي مضرب غليظ أستطيع إمساكه بكلتا يدي لتمكنت من قتل أولهما بكل تأكيد حتى وأنا في هذه السن الآن .

إنه لا يريد أن ينظر إلى السمكة ، إنه يعلم أن نصفها قد قضي عليه .

وكانت الشمس قد غربت حين كان يخوض المعركة ضد القرش .

وهمس قائلاً :

ــ سرعان ما سيهبط الظلام : عندئذ أستطيع أن أرى وهج أضواء

هافانا : وإذا كنت قد أوغلت بعيداً نحو الشرق فسأرى أضواء أحد الشواطئ الجديدة .

ثم أضاف قائلاً :

— لا يمكن أن أكون الآن على بعد كبير ، وآمل ألا يكون أحد قد أصابه قلق شديد من أجلي ، وعلى الأرجح هناك الصبي الذي سينتابه القلق بالطبع ، ولكنني متأكد أن لديه ثقة بي : وسيقلق الكثيرون من عجائز الصيادين : وسيقلق كثيرون غيرهم أيضاً ، فأنا أقطن بلدة طيبة

إنه لم يعد يستطيع أن يتوجه بحديثه إلى السمكة بعد الآن ، فقد أصابها الدمار على نحو يدعو إلى أبعد الحدود . غير أنه لم يلبث أن قفز خاطر إلى ذهنه ، فقال مخاطباً ما تبقى من السمكة :

— أيها النصف السمكة ، يا من كنت سمكة ، إنني آسف إذ مضيت بعيداً في البحر ، لقد دمرت كلانا . ولكننا قتلنا قروشاً عديدة أنت وأنا ، وأصبنا كثيراً غيرها بإصابات بالغة . هلا قلت لي كم سمكة قتلتها في حياتك أيتها السمكة العجوز ؟ إن ذلك السهم فوق رأسك لا يوجد عبثاً .

وراق له أن يفكر في السمكة ، وبماذا كانت عساها فاعلة إذا كانت تسبح في البحر حرة طليقة وتلتقي مع أحد القروش ؟

وقال لنفسه :

— كان ينبغي أن أقطع منقارك لأحارب به القروش ، ولكن ليس معي بلطة ، كما أصبحت لا أملك سكيناً ، غير أنني إذا حصلت على منقارك وربطته في مجذاف فيا له من سلاح ! إذن لكنا قاتلنا القروش معاً .

وماذا عساك تفعلين الآن إذا جاءت القروش في الليل ؟ ماذا يمكنك أن تفعليه؟

وهنا قال :

ـ نحاربها . سأحاربها حتى يدركني الموت .

ولكن في هذا الظلام الحالك الآن ، وليس هناك أي وهج ، ولا أضواء ، اللهم إلا الريح ، والشراع الذي يسحب المركب : شعر العجوز بأنه الآن ميت : فألصق إحدى راحتيه بالأخرى ليتحسسها .. لم يزحف الموت إليها بعد ، وكان باستطاعته أن يستحضر آلام الحياة ببساطة عن طريق فتحها وإغلاقها . انحنى بظهره عند مؤخرة المركب ، فأدرك أنه لم يمت بعد كما أبلغته بذلك كتفاه .

وقال لنفسه :

ـ إنني أعرف كل الصلوات التي وعدت بأدائها حين أظفر بالسمكة ، ولكن الإعياء يأخذ مني كل مأخذ ، حتى لم يعد في استطاعتي أن أتلوها .. خير لي أن أحضر الكيس وأضعه فوق كتفي .

وقف عند مؤخرة المركب وهو يدير الدفة منتظراً أي وهج يبدو في السماء .

وهمس قائلاً :

.. معي الآن نصف السمكة ، وقد أكون محظوظاً فأعود بذلك النصف : لابد أن يحالفني بعض الحظ .

ثم استدرك قائلاً :

ـ كلا . . فقد تهشمت كومة حطامك حين توقفت عجباً في البحر .

وبكته ثانية بصوت مرتفع :

ـ لا تكن ساذجاً سخيفاً ، ولتظل متيقظاً ، وارهف الأذنة ، فلعله ما تزال في انتظارك كثير من الحظ .

ثم قال :

ـ كم أود أن أشتري بعضاً منه ، إذا كان هناك مكان يبيعونه فيه .

وحدث نفسه :

ـ بأي أستطيع أن أبتاعه ؟ هل يمكنني أن أشتريه برمح مفقود ، وسكين مكسورة ، ونعلين ممزقين عتيقين ؟

ثم قال :

ـ يجب أن تسعى نحو ذلك ، فقد حاولت أن تشتريه بأربعة وثلاثين يوماً في البحر ، ومن ثم باعته إياه تلك الأيام أيضاً مثلي .

وفكر في أعماقه :

ـ يجب ألا تنكر ذلك التفكير السخيف ، فالحظ شيء يجيء في أشكال عديدة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يدركه ويتعرف عليه ؟ سآخذ بعضاً منه على أي شكل كان ، وسأدفع فيه ما يطلبون .

ثم قال :

ـ كم أود لو أرى جميع الأضواء ، إنني أتمنى أيضاً كثيراً من الأشياء ، ولكن ذلك الوضع هو الذي أتمناه الآن .

وخاف الآن أن يتخذ وضعاً أكثر راحة تبدد الدفء ، وذلك من الآلام التي يعانيها إنه لم يمت بعد .

ثم رأى انعكاسات الأضواء الساطعة المنبعثة من المدينة في الوقت الذي حدده بأنه حوالي العاشرة مساءً .

لقد أدرك تلك الأضواء بإحساسات في أول الأمر ، لأنها كانت مضيئة في السماء قبل طلوع القمر ، ثم ظل يراها ثابتاً عبر المحيط الذي كان مضطرباً هائجاً مع زفيف النسيم .

أدار الدفة نحو الوهج ، وأدرك أنه سرعان ما سيتقدم شيئاً فشيئاً ليسير مع التيار .

وقال لنفسه :

ـ الآن أوشكت المتاعب أن تنتهي . . من المحتمل أن تهاجمني القروش مرة أخرى ، ولكن كيف يستطيع المرء أن ينازلها تحت جنح الظلام بدون أن يكون معه سلاح ؟

تجمدت أعضاء العجوز من برودة الليل ، وأصبحت تعصف بإبهامه ، وكذلك جروحه ، وكل الأجزاء المجروحة من جسده ؛ سببت له آلاماً عنيفة .

وقال :

ـ أتمنى ألا أقاتل مرة أخرى ، أمل كثيراً ألا أخوض معارك أخرى .

غير أنه عندما انتصف الليل خاض معركة أخرى ، وكان يعلم هذه المرة أن القتال لا جدوى منه .

جاءت القروش بأعداد وفيرة ، واستطاع فقط أن يرى الخطوط التي ترسمها زعانفها في الماء ووهجها الفسفوري عندما انقضت على السمكة ، فراح يضربها فوق رءوسها بهراوته ، وسمع فكوكها تشق ، وأحس باهتزاز المركب عندما نزلت القروش تحته .

وظل يضرب يائساً على كل ما يستطيع أن يشعر به أو يسمعه ، ثم أحس بأن شيئاً أمسك بالهراوة ، وأفلتت منه .

انتزع ذراع الدفة وأخذ يضرب به بكلتا يديه ويغرزه مرة تلو المرة ، ولكن القروش صعدت الآن إلى مقدمة المركب واحداً وراء الآخر ، وتجمعت معاً لتمزق لحم السمكة ، وتنتزعه قطعة قطعة ، وقد بدت متوهجة تحت السطح ، ثم استدارت القروش لتجيء مرة أخرى .

وتقدم أحد القروش في النهاية من رأس السمكة فأدرك العجوز أن السمكة قد انتهت ، وطوح بذراع الدفة وأهوى به فوق رأس القرش الذي تعلق فكاه في رأس السمكة الضخم الثقيل والذي أخفق في تمزيقها ، وأهوى بذراع الدفة على رأس القرش مرة ومرتين ، وعاود الكرة ، وإذا به يسمع صوت تكسر ذراع الدفة ، فضرب القرش بالنهاية المتبقية من طرفها الغليظ ، فشعر بها تنغرز ، فأدرك أنها حادة ، وعاود الطعن بها ، فابتعد القرش وهو يتمايل ويترنح ، وكان هذا آخر قرش بقي من مجموعة القروش ، ولم يعد هناك ما يأكلونه .

إن العجوز الآن يتنفس بشق الأنفس ، ويحس بطعم غريب في فمه .. كان طعمه نحاسياً حلواً ، فاعتراه الخوف لحظة .

بصق في المحيط قائلاً :

ـ تناوليه أيتها القروش الخسيسة ، واحلمي أنك قتلت رجلاً .

إنه يعرف أنه غُلب على أمره في النهاية ، وأنه لا علاج لذلك . وعاد إلى مؤخرة المركب ، ووجد الطرف المتخلف من ذراع الدفة يمكن إدخاله في الفتحة الضيقة المخصصة لها ، وأن ذلك يكفي لتمكينه من إدارة دفة المركب ، ولف الكيس حول كتفيه ، ووجه المركب ليسير في طريقه .

أبحر العجوز الآن بسهولة ورفق ، وبلا مبالاة ، بدون أن تكون لديه أفكار أو أية مشاعر من أي نوع .

لقد مضى كل شيء الآن ، وأقلع بمركبه مسرعاً ووجهه شطر ميناء موطنه بطريقة جيدة على نحو مُرضٍ وبذكاء على قدر استطاعته .

هاجمت القروش المركب في أثناء الليل كما يفعل شخص ما حين يلتقط الفتات المتبقي فوق المائدة .

لم يُعر العجوز القروش اهتماماً ، ولم يلقِ بالاً لأي شيء سوى إدارة الدفة وتوجيهها ، ولاحظ فقط كيف يسير المركب الآن في سهولة وبطريقة حسنة مرضية ، حيث لم يعد يعوقها ثقل كبير بجانبها .

وقال في نفسه :

ـ ها هو ذا المركب يمضي سليماً لم يصبه ضرر بأي حال ، عدا ذراع الدفة ، وهذا يمكن تعويضه بسهولة .

استطاع أن يشعر أنه يسير مع التيار الآن ، وكان يرى أضواء المستعمرات الساحلية على طول الشاطئ .

عرف الآن أين كان ، وأنه يمضي قُدُماً نحو موطنه .

وقال :

- إن الريح صديقة لنا بأية حال .

ثم أضاف :

- أحياناً : أما البحر العظيم فهو مع أصدقائنا ومع أعدائنا .

وصمت قليلاً .

- والفراش . . إنه صديقي .

واستطرد قائلاً :

- إنه فراش بكل ما في الكلمة من معنى ، وسيكون شيئاً عظيماً . . إنه مريح عندما نُهزم .

ثم قال :

- لم أكن أعرف قط أنه مريح إلى هذا الحد .

وتساءل قائلاً :

- ومن الذي هزمك ؟

أجاب بصوت عالٍ .

- لا شيء . . أنا الذي أوغلت بعيداً .

وعندما دخل مركبه إلى الميناء الصغير ، كانت الشرفة مطفأة الأضواء ، فعرف أن الجميع في فراشهم

كانت الريح تهب ، ثم أخذت الآن تشتد ، غير أن الهدوء كان يسود الميناء ، وسار بمركبه في البقعة الصغيرة التي يكثر فيها الحصى تحت الصخور .

لم يكن هناك أحد ليمد له يد المساعدة ! لذا دفع المركب في الساحل قدر استطاعته ، ثم خطا خارجه ، وشده إلى إحدى الصخور .

خلع الصاري من مكانه : وطوى حزمة الشراع وربطه ، ثم حمله على كتفه وبدأ يصعد ، وهنا عرف عمق ما حل به من تعب . . توقف لحظة وتطلع إلى الخلف ، فشاهد من خلال الأشعة المنعكسة من ضوء الشارع ذيل السمكة الضخم في وضع رأسي خلف مؤخرة المركب ، ورأى عمودها الفقري أبيض عارياً ، وكتلة الرأس القاتمة بمنقاره البارز . وكان ما بينهما مجرداً من اللحم .

ويعاود الصعود مرة أخرى ، وعند القمة سقط ورقد بعض الوقت ، والصاري على كتفه .

حاول أن ينهض ، ولكن ذلك كان شاقاً عليه ، فجلس هناك والصاري فوق كتفه ، ونظر إلى الطريق .

لمح قطة تمر في الجانب البعيد وهي تمضي إلى حال سبيلها ، فراح العجوز يراقبها .

وأخيراً أنزل الصاري ونهض منتصباً على قدميه ، التقط الصاري ووضعه على كتفه واستأنف سيره ، ولكنه اضطر إلى الجلوس خمس مرات قبل أن يصل إلى كوخه .

أسند الصاري إلى الجدار داخل الكوخ ، وعثر في الظلام على زجاجة ماء فشرب منها جرعة ، ثم تمدد فوق فراشه ، وجذب البطانية فوق كتفيه ثم فوق ظهره وساقيه ، ونام ووجهه إلى أسفل فوق أوراق الصحف مادّاً ذراعيه على استقامتهما ، جاعلاً راحتي يديه إلى أعلى

كان نائماً حين جاء الصبي في الصباح . ونظر من خلال الباب .

اشتد هبوب الريح حتى إن القوارب انصرفت عن خطوط سيرها فلم تتمكن من مواصلة السير ، وكان الصبي قد نام في ساعة متأخرة ، ثم جاء إلى كوخ الرجل العجوز كعادته كل صباح .

نظر الصبي إلى العجوز فوجده يتنفس ، ثم رأى يديه فانخرط في البكاء ، وخرج في هدوء ليجيء له ببعض القهوة .

وظل الصبي يبكي طوال الطريق .

تجمع كثير من الصيادين حول المركب وهم ينظرون إلى ما كان مربوطاً إلى جانبه ، وكان أحدهم في الماء وقد ثنى بنطلونه ، وأخذ يقيس هيكل السمكة بخيط .

لم يهبط الصبي إلى مكان المركب ، فقد ذهب إلى هناك من قبل ، وكان أحد الصيادين يعنى بالمركب من أجله .

صاح أحد الصيادين :

ـ كيف حاله ؟

فأجابه الصبي صائحاً :

ـ إنه نائم .

لم يبال الصبي بأنهم رأوه يبكي وقال :

ـ أرجو ألا يزعجه أحد .

وهتف الصياد الذي كان يقيس هيكل السمكة :

ـ كانت تبلغ من الطول ثمانية عشر قدماً من الأنف إلى الذيل .

فقال الصبي :

ـ إنني أصدق ذلك .

ومضى الصبي إلى الشرفة ، وطلب علبة من القهوة ، وقال :

ـ ساخنة وممزوجة بمقدار وافر من اللبن ، وفيها سكر .

ـ أي شيء آخر ؟

ـ كلا . . وسأرى فيما بعد ماذا يأكل .

قال صاحب الشرفة :

ـ يا لها من سمكة ! لم ير أحد قط مثل هذه السمكة ! على أن السمكتين اللتين حصلت عليهما بالأمس كانتا رائعتين .

فقال الصبي :

ـ اللعنة على سمكاتي .

وشرع في البكاء مرة أخرى .

وسأله صاحب الشرفة :

ـ ألا تريد شراباً من أي نوع ؟

فقال الصبي :

ـ كلا . . وقل لهم ألا يزعجوا سانتياجو ، وسأعود ثانية .

ـ أبلغه تحياتي آسف .

رد عليه الصبي قائلاً :

ـ شكراً .

ـ حمل الصبي إناء القهوة الساخنة وصعد به إلى كوخ الرجل العجوز ، وجلس بجانبه حتى استيقظ ، لقد بدا عليه في إحدى المرات كما لو كان يستيقظ ، ولكنه عاد واستغرق في نوم عميق .

عاد الصبي الكوخ في الطريق يستعير بعض الأخشاب لتسخين القهوة .

وأخيراً استيقظ العجوز ، فقال له الصبي :

ـ لا تنهض اجلس .. اشرب هذا .

وصب بعض القهوة في كوب .

تناولها العجوز واحتساها ، قائلاً :

ـ لقد تغلبوا علي يا مانولين .

وأردف :

ـ حقاً لقد انتصروا علي .

فقال الصبي :

ـ إن السمكة لم تهزمك .

ـ حقاً : ولكن حدث ذلك فيما بعد .

- لا، بدريكو يعتني بالزورق والعدة .. ماذا تريد أن تفعل برأس السمكة؟

- دع بدريكو يقطعها لتستعمل مصائداً للأسماك .

- ومنقارها ؟

- احتفظ به أنت إذا كنت تريده .

فقال الصبي :

- إنني أريده . والآن يجب أن نعد خططنا حول الأشياء الأخرى .

- هل بحثوا عني ؟

- طبعاً ، مع خفر السواحل والطائرات .

فقال العجوز :

- المحيط فسيح الأرجاء والزورق صغير ، وتصعب رؤيته .

لاحظ العجوز كم هو سارٌّ أن تجد أحداً تتحدث إليه بدلاً من التحدث فقط إلى نفسك وإلى البحر .

ثم قال :

- لقد افتقدتك .. ماذا اصطدت ؟

- واحدة في اليوم الأول ، وواحدة في الثاني ، واثنين في الثالث .

- حسن جداً .

- والآن سنصطاد معاً مرة أخرى .

ـ كلا . . إنني لست محظوظاً ، لم يعد لي حظ على الإطلاق .

فقال الغلام :

ـ إلى الجحيم أيها الحظ ، سيكتب لك الحظ معي .

ـ وماذا ستقول أسرتك ؟

ـ لا يهمني هذا ، لقد اصطدت سمكتين بالأمس ، ولكننا سنخرج للصيد معاً من الآن ، لأنني مازلت في حاجة إلى تعلم الكثير .

ـ يجب أن نأتي برمح قاتل قوي ، وأن يكون معنا دائماً فوق سطح المركب . ويمكنك أن تصنع نصله من صفيحة قوية من صفائح سيارة فورد قديمة ، ويمكننا أن نقوم بصقله وشحذه في « جوانا باكوا » . يجب أن يكون حاداً ، على ألا يكون من الفولاذ القابل للكسر .

لقد انكسرت سكيني .

ـ سأحضر سكيناً أخرى ، وسأشحذ الصفيحة التي سنصنع منها الرمح .

ثم قال الصبي :

ـ كم يوماً يستمر هذا النسيم الشديد ؟

ـ ربما ثلاثة أيام ، وربما أكثر .

فأضاف الصبي :

ـ سأنظم كل شيء ، وعليك أن تعتني بيديك أيها الرجل العجوز .

ـ إنني أعرف كيف أعتني بهما . . لقد بصقت في الليل شيئاً غريباً ، وأحسست أن شيئاً في صدري ينسحق بالألم .

فقال الصبي :

- امض بذلك أيضاً . . استلق أيها العجوز وسأجيئك بقميصك النظيف وبشيء تتبلغ به .

عندئذ قال له العجوز :

- أحضر لي صحيفة من الصحف التي صدرت في الوقت الذي تغيبته .

- يجب أن تسترد عافيتك سريعاً ، فهناك الكثير الذي أستطيع أن أتعلمه ، ويمكنك أن تعلمني كل شيء ، إلى أي مدى عانيت ؟

فقال العجوز :

- كثيراً .

قال الصبي :

- سأجيئك بالطعام والصحف ، استرح جيداً أيها الرجل العجوز ، سأحضر دواء ليديك من مخزن العقاقير .

- لا تنس أن تخبر بدريكو أن رأس السمكة له .

- كلا . . سأتذكر ذلك .

وحين خرج الغلام من الباب ، هبط إلى الطريق الصخري المرجاني يبكي ، وقصدت بعد الظهر مجموعة من السائحين إلى الشرفة ، وكانت معهم امرأة تتطلع إلى الماء ، فرأت بين علب البيرة الفارغة وسمك الباركودة الميت

عموداً فقرياً طويلاً أبيض اللون منتهياً بذيل ضخم في طرفه يرتفع وهو يتأرجح مع حركات المد والجزر، في حين كانت الريح الشرقية تهب فوق بحر عميق خارج مدخل الميناء.

سألت امرأة أحد السقاة:

ـ ما هذا؟

وكانت تشير إلى العمود الفقري للسمكة الضخمة الذي أصبح الآن مجرد نفاية في انتظار أن تجرفها مياه المد والجزر.

فأجاب الساقي بلغة إنجليزية ركيكة:

ـ سمكة قرش.

وكان يحاول أن يشرح لها ما حدث.

ـ لم أكن أعرف أن أسماك القرش لها مثل تلك الذيول الرشيقة، وبذلك الشكل البديع.

فقال زميل لها:

ـ ولا أنا أيضاً.

وفي أعلى الطريق كان الرجل العجوز قد أسلم نفسه للنوم مرة أخرى داخل الكوخ.

كان لا يزال نائماً على وجهه، في حين جلس الصبي إلى جواره يراقبه.

وكان العجوز يحلم بالأسود والسباع.

المؤلف

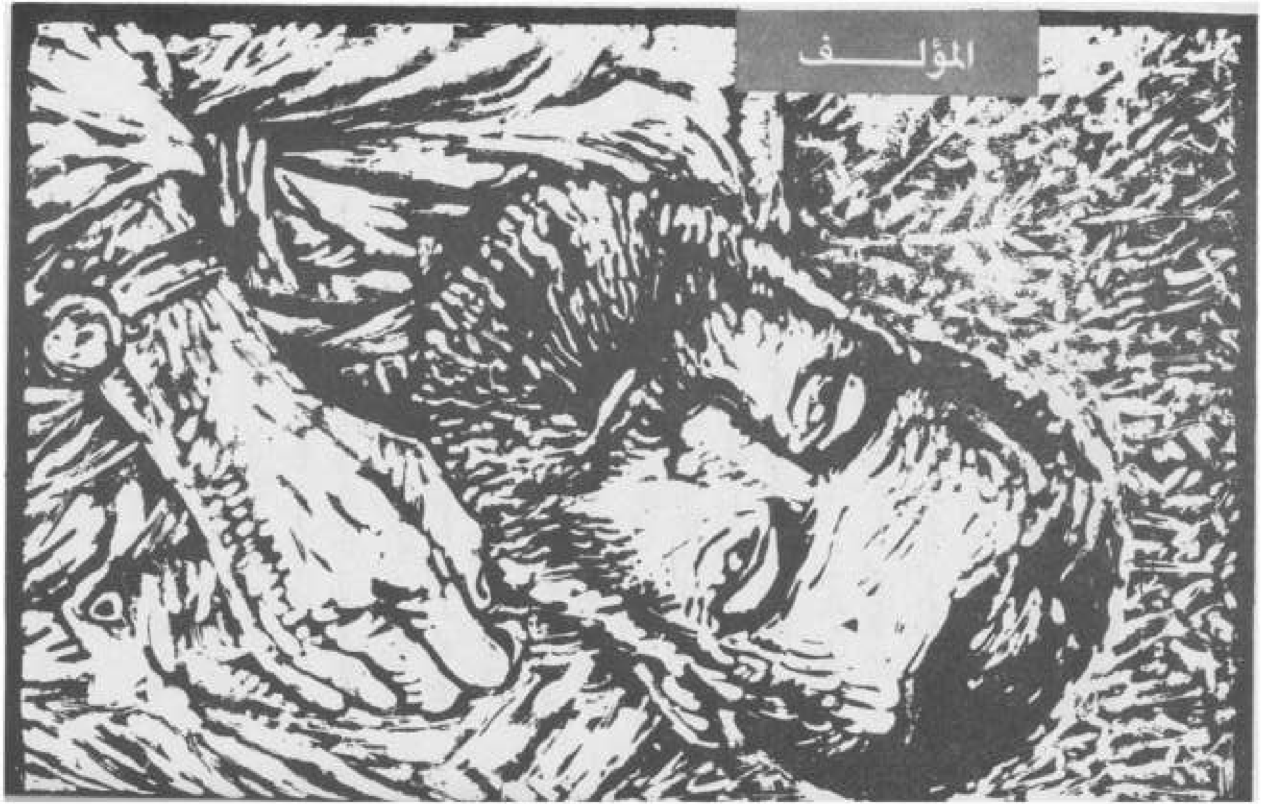

أرنست هيمنجواي

إرنست هيمنجوي روائي وقصاص أمريكي من أشهر وأعظم كتاب القرن العشرين

حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٤ ، كما فاز بجائزة « بوليتزر » قبل ذلك بعام عن روايته « العجوز والبحر » .

رأت عيناه النور في الحادي والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٩ في أوك بارك بولاية « إلينوي » .

كان والد إرنست هيمنجوي – الدكتور كلارنس إدمونز هيمنجوي – يعمل طبيبًا كممارس عام ، وكانت والدته – جريس هول هيمنجواي – قد عرفت والده منذ أن كانا يتلقيان التعليم في المدرسة العليا بأوك بارك – وهي مدينة من ضواحي « شيكاغو » – وهي التي أنجبت إرنست ، الطفل الثاني الذي رُزقت به هيمنجواي ، وأول أبناء الدكتور . وأصبحت الأسرة – فيما بعد – مكونة من ستة أطفال : أربع بنات وولدين ، بالإضافة إلى الوالدين .

وفي عام ١٨٩٩ الذي وُلد فيه هيمنجواي ، بنى والداه مقرًا لهما . كوخ صيفي على شواطئ بحيرة « والون » التي كان يُطلق عليها في ذلك الوقت « بحيرة الدب » ، بالقرب من مدينة « بيتوسكي » شمال « ميتشيجان » .

وقد أصبحت هذه البحيرة والبيئة المحيطة وضواحيها مصدر إلهام لإرنست في كثير من قصصه القصيرة .. وهي أيضًا المنطقة التي تدور فيها قصة « النهر ذو القلبين الكبيرين » حيث مارس فيها « نك آدامز » أولى خبراته في مباهج الحياة وأحزانها ، وواجه فيها الحب ، والعنف ، والموت .

وكان الصبي إرنست هيمنجواي يقضي شهور الصيف على شواطئه

بحيرة « والون » حيث تدرب فيها على إقامة خيمته ، ومارس فيها تصيد الطراد : وصيد الأسماك . وهناك نشأ الارتباط بينه وبين الخلاء والهواء الطلق الذي تفتح إليه ذهنه ، وشغف به طوال حياته .

وتعلق إرنست — مثل أبيه — بالطبيعة وأحبها . وقد أعطاه والده قصبة صيد وهو في سن الثالثة ، وأعطاه بندقية وهو في سن العاشرة . وكان إدموندز هيمنجواى طبيباً نطاسياً ، وعرف كل أنواع الأسماك ؛ وكان ماهراً في الصيد والقنص ، ومغرماً بجمع الآثار القديمة وما له صلة بعالم الحيوان . وكان حاد النظر ، يرى على مسافات بعيدة ، وامتاز ببراعته في إطلاق بندقيته حتى كان يصيب بها الهدف بدقة بالغة ، وعلّم إرنست فن الرماية ، وصيد الأسماك ، وإقامة الخيام . وكان إرنست وهو صبي يصحب أباه حينما يُستدعى لإسعاف حالات طارئة حول « بيتوسكي » .

وكان « نك آدامز » بطل بعض قصص إرنست هيمنجواي المبكرة ، يصحب والده — الذي كان طبيباً هو الآخر — في مثل هذه الاستدعاءات

وأعطى إرنست هيمنجواي لأبيه شكلاً مثالياً في بعض قصصه ، كما يفعل أغلب المراهقين من الشباب ، فبالنسبة لإرنست في مرحلة مراهقته أصبح مدى إعجابه بأبيه أكثر حدة ، وعطلاته أكثر قوة ، غير أن الطريقة التي مات بها والده كانت موضوعاً مؤلماً لإرنست ، ففي عام ١٩٢٨ كان إدموندز هيمنجواى مريضاً ومصاباً بالإحباط ، واستعصى عليه النوم ، فانتحر بمسدس والده الذي كان من مخلفات الحرب الأهلية .

ظلت فكرة الموت مسيطرة على إرنست الشاب شيئاً عميقاً في نفسه ، وكثيراً ما كان يتأمل في الانتحار ؛ ولذلك نراه يكرر انتحار الآباء مراراً .

وعلى سبيل المثال نجد والد نك آدمز يقتل نفسه ، كما فعل والد روبرت جوردان في رواية « لمن يدق الناقوس ؟ » . ولطالما خشي ارنست أن يفقد قواه البدنية والعقلية عندما يتقدم به السن ، ومثلما فعل أبوه أنهى حياته بإطلاق الرصاص على نفسه في أثناء فترة انتابه فيها إحباط شديد .

يبدو بارزاً تماماً المسألة السيكولوجية في العلاقة بين ارنست ووالده .. الأمر الذي يتطلب مزيداً من البحث والاستقصاء .

حين نضج ارنست كان في حاجة ماسة إلى تأكيد ذاته ، وإثبات تفوقه على الآخرين ، فشكل نفسه في قالب أبيه من حيث إخضاع أمه وحقوقه إخضاعاً كاملاً لسلطة الأب ، لتضحى بذلك شخصية تلك الوالدة ، برغم ميله واستمتاعه في معظم حياته وهو يحب مناداته مثل والده بلقب « بابا » كما كان ينادي هو طفلا . لم يصفح قط عن والدته حين كانت تسخر من أبيه ؛ كما لم يصفح عن والدته نصحها له بأن يستقل عنه .

تلقى ارنست همنجواي تعليمه الأساسي في مدارس أوك بارك الرسمية . وفي المدرسة الثانوية كان متفوقاً في اللغة الإنجليزية ، ومتوسطاً في غيرها من المواد الأخرى . عمل مراسلاً صحفياً في الصحيفة المدرسية ، وكان ذلك أول احتكاك له بالصحافة التي مهدت له السبيل للتحول إلى عالم خارج نطاق أوك بارك . وقد بدأ في كتابة القصص حين كان في الصف قبل الأخير بالمدرسة الثانوية ، متخذاً من نفسه عادة بطلاً لها في مواقف صعبة . واستمر يكتب القصص في المجلة الأدبية التي تصدرها المدرسة العليا ، وكان يصوغها على غرار « رنج لاردنر » الذي كان حين ذاك كاتباً رياضياً معروفاً ، يحرر عموداً خاصاً في صحيفة « شيكاغو تريبيون » ، وعلى غرار

القصص العنيفة لحياة البادية التي كان يكتبها الروائي والقصاص الأمريكي جاك لندن (١٨٧٦ - ١٩١٦ م) . وظهرت موهبته التي حددت فيما بعد مشوار حياته في دنيا الصحافة والإبداع القصصي عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية .

وكان إرنست همنجواي يهتم اهتماماً عميقاً بكل أنواع الرياضة ، وكان يعشق ممارسة المعسكرات والمخيمات ، ورياضة التجديف ، والسباحة ، وصيد الأسماك ، ومباريات الرماية . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره مارس رياضة الملاكمة ، واكتشف موهبته في ذلك المجال ، وأصبح بمرور الوقت من هواة الملاكمة البارعين .

توقع أبوه أن يحتذي إرنست حذوه . في حين حاولت الأم بميولها الموسيقية أن تجعل منه عازف فيولونسيل ، ولكن جميع محاولاتها باءت بالفشل .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره هرب من المنزل ، ولكنه عاد إليه ثانياً ، وتخرج في المدرسة الثانوية في يونيه من عام ١٩١٧ . وطرح التعليم الجامعي جانباً ، ولكنه تلقى فيما بعد تعليماً متقطعاً في فرنسا .

وبجهود عمه تيلر حصل إرنست همنجواي على وظيفة مراسل «كانساس سيتي ستار» . وكانت هناك بعض الأحاديث عن التحاقه بالجيش بعد أن أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ، ولكن أباه عارض في ذلك لصغر سن ابنه ، كما أن إرنست لم يصر على هذا الأمر .

تاق إرنست إلى الابتعاد عن مراقبة أعين والديه ، وإلى أن يضرب بنفسه في فجاج الأرض . كانت كانساس مدينة خشنة مضطربة تموج بنشاط صاخب ، بالإضافة إلى أعمال العنف والجرائم وتجارة الجنس ، ويقيم الناس

الشباب بمهامه في المستشفيات والمحاكم ، مما أتاح له أن يرى العالم السفلي من حياة المدينة الأمريكية الحديثة المتحضرة . وقد زودت تلك الخبرات هيمنجواي بشخصيات عديدة لكثير من قصصه المبكرة ، وأسهمت بطريقة غير مباشرة في تطور الإنتاج الفني الواقعي بين حد القسوة ، بطريقة مضادة للكليشيهات الخلقية ؛ والوعظ المهذب رقيق التكلف .

وربما كان أهم ما اكتسبه إرنست في عمله بكانساس سيتي ستار هو تأثيرها على أسلوبه ، فقد تدرب على عملية التحرير الصحفي ، ومن فضائل ذلك : الموضوعية ، والإيجاز ، والوضوح . وتعلم هيمنجواي في كتابته أن يستعين بالجملة القصيرة البسيطة الصريحة ، وأن يتجنب الصفات الوهمية غير الموضوعية . وإذا كانت الأسماء والأفعال بسيطة فإن القارئ سيجد الاستجابة المناسبة لكي يتأثر عاطفيًا .

وفوق كل شيء ، يجب أن تكون الكتابة الصحفية مقروءة . وقد أثرت الصحافة تأثيرًا قويًا على النثر الأمريكي بعد الحرب الأهلية . فالروائي والكاتب الفكاهي الأمريكي مارك توين (١٨٣٥ ـ ١٩١٠) ، والروائي القصاص الأمريكي ستيفن كرين (١٨٧١ ـ ١٩٠٠) برزا في ميدان الأدب القصصي من خلال خلفية صحفية ، وهما ضمن القلة التي كان لها تأثير أدبي مباشر على هيمنجواي . إن أسلوبهما النثري يحاكي اللغة المستعملة في الحياة اليومية ، ويبتعد عن الأسلوب الأكاديمي المنمق المزخرف الذي نجده في كتابات « نيو إنجلند » .

قدم هيمنجواي طلبًا إلى الصليب الأحمر الأمريكي ليعمل سائقًا لعربات إسعاف مستشفيات الميدان ، واستقال من « كانساس سيتي ستار » في أبريل عام ١٩١٨ وتم استدعاؤه للعمل في الصليب الأحمر

وابحر همنجواي متجهاً إلى مسرح العمليات الحربية في أوروبا وهو تحدوه روح المغامرة ، وكان يلتهب حماساً إلى خوض غمار الحرب ، وتوقف في "سكيو" التي تبعد عن "ميلانو" في شمال إيطاليا بحوالي عشرين ميلاً. ووجد أن عمله الروتيني كسائق لعربات الإسعاف ليس فيه إثارة كافية ، فخرج للعمل في "كنتين" الخط الأمامي من الجبهة ، وأُرسل إلى "فوسالتا" على جبهة نهر "بياف" . وهناك أُصيب همنجواي بجراح بالغة في الهجوم الذي شنه الجيش النمساوي بمدفع "الهاون" ، وبمدفع الرشاشة ، وعانى من جراح متعددة في ساقيه ، وكان أخطرها رصاصة من مدفع رشاش مزقت ركبته اليمنى ، ورغم عجزه فقد نجح في حمل جندي إيطالي جريح إلى مكان آمن . وقد مُنح وسام الشجاعة الفضي وصليب الحرب إثباتاً لشجاعته لعمله البطولي ، ورُقّي إلى رتبة "ملازم أول" بالجيش الإيطالي النظامي .

وبعد أن أُسعف همنجواي في مستشفى الميدان ، نُقل إلى مستشفى الصليب الأحمر الأمريكي بميلانو ، حيث أُجريت له جراحة استخراج الرصاصة من ركبته اليمنى ، ورُكّب لها غطاء بلاتيني . واسترد عافيته بعد عدة شهور ، وقام برحلات قصيرة في العطلات متكئاً على عكاز . وقد حاول العودة إلى عمله في الصليب الأحمر . وفي النهاية شُفي من جراحه ، ومن نزوته الرومانتيكية في الحرب .

وفي أثناء وجود همنجواي في المستشفى وقع في حب ممرضة أمريكية ، رفضت عرضه الزواج ؛ فقد كانت "أجنس فون كوروسكي" لا تأخذ الزواج مأخذ الجد ، وشجعته على العودة إلى الولايات المتحدة ؛ في حين بقيت هي في أوروبا . . وتعددت المراسلات بينهما . وظلت مستمرة عبر المحيط

الأطلنطي : حتى أخبرته أنها خطبت ضابطاً فتياً بالجيش الإيطالي . شعر إرنست في ذلك الوقت بالتعب والحزن ، ولكنه لم يلبث أن شُفي من ذلك الحب . واستخدم تلك التجربة التي مر بها أساساً لقصة ساخرة تبعث الشك في طيبة الدوافع البشرية ، وكان عنوانها : « قصة قصيرة جداً » .

كانت « أنيس » نقطة انطلاق هيمنجوي في تصويره لشخصية كاترين باركلي بطلة رواية « وداعاً للسلاح » . وكانت خبرته بأكملها في إيطاليا هي النواة الخام لهذه الرواية

ويسهل على المرء أن يدرك حياة هيمنجواي في أعماق الرواية القصصية ، ولكنها ليست ذاتية تماماً .

وكان تأثير تجربة الحرب على هيمنجواي عميقاً على مدى عمره .

وفي روايتي « الشمس تشرق أيضاً » و « وداعاً للسلاح » اللتين تعتبران من أنجح رواياته ، نجد أن أبطالهما ، بصورة خاصة ، لا يتميزون بالبطولة ، وإنما تكمن صفاتهم الرئيسية في حساسيتهم تجاه قسوة الحياة وخلوها من المعنى . لقد شوهتهم الحرب ، أو أصابتهم بالإرهاق والتعب ، والضجر والملل والحزن والاشمئزاز ، والسخرية من دوافع السلوك البشري ، أو جعلتهم يعانون من العنف والموت ، أو أصيبوا بالهم والرعب .

ولكن في بعض أعماله الأخيرة .. وخاصة « عبر النهر وإلى الأشجار » نسمع هيمنجواي بنبرته العاطفية تستخفي خلف التظاهر ، عند شخص صارم حازم خشن قوي صلب العود أن تقتحم قلبه وتنفذ عنوة فيه . وكان ذلك من أعراض انحدار الفنان وأفول نجمه

قرأ بعض النقاد أعمال هيمنجواي وأصدروا حكمهم عليه في وضع

ويطاوع موقف العقل ويراجع بصائره لثقيـة كثيرة للاعتراض ويرفض ، ويؤكد البعض الآخر على أن همنجواي يجذب القراء بقوة صورته الأسطورية أكثر من قوة كتابته ، ويكون هناك شيئاً مؤكداً وهو أن وجود تلك الصورة الأسطورية قد أدى بين نقاد أقرانه في نسبة فن وتقييم همنجواي إلى حد نتج عنه تشويه وسوء فهمه .

حين رجع همنجواي من أوروبا إلى أوك بارك احتفت به أسرته ، وكرّمه أصدقاؤه والمجتمع ، ولكن سرعان ما شاب التوتر جو الأسرة ، وقد دفعه تلك الفترة من حياته إلى كتابة قصة قصيرة بعنوان : « بيت الجندي » . وتوقعت والدته منه أن يستقر ويعزز مكرماً شخصياً .

وفي عام ١٩٢٠ حصل إرنست على وظيفة في « تورونتو » كمرافق لصبي مقعد مصاب بالشلل . كان لديه متسع من وقت الفراغ . وبجهود والد الصبي حصل إرنست على وظيفة مراسل تورونتو ديلي ستار ، وكاتب مقالة خاصة في جريدة « ستار » الأسبوعية . وظل إرنست يكتب في الصحيفتين طوال أربع سنوات ، وكان اسمه يتصدر مقالاته ، غير أنه لم يحصل إلا على أجر متواضع .

وقد غادر « تورونتو » ليقضي صيف عام ١٩٢٠ على شاطئ بحيرة « والون » ثم عاد إلى أوك بارك . لم يكن إرنست يشعر بالراحة في الموقف المتوتر داخل المنزل ، فخطط لنفسه أن يغادره في أسرع وقت . وهكذا انفصل عن بيت والديه ، وكان يعود بانتظام إلى أوك بارك ، وخاصة في عطلة نهاية الأسبوع . وجعل من « شيكاغو » مقره الرئيسي ، وأقام بها في شـقة من الشقق الرخيصة الأجر ، واستمتع هناك بحياة اجتماعية نشطة

شاب له كثير من الأصدقاء . ويعمل في عدة وظائف صحفية تتصل بالكتابة ، وكان مستمرًا في إرسال المقالات إلى جريدة « ستار » الأسبوعية .

يقابل « هادلي ريتشاردسون » في عام ١٩٢٠ . وهي فتاة من « سانت لويس » كانت تكبره بسنها . ويتم زواجهما في عام ١٩٢١ ، وتأتي زوجته هادلي التي بادلته الحب ، وحققت لأحلامه الزواج : والذهاب إلى أوروبا وخاصة إيطاليا ، حيث يتمكن من رؤية مناظر التي شهدت مغامراته إبان الحرب . وسوف يعيشان على الدخل الذي تدره وديعة تحريرية لهادلي ، وهو حوالي ألفين وخمسمائة دولار في العام . وكان همنجواي قد قابل « شيروود أندرسون » في « شيكاجو » في ذلك الوقت ، والذي كان قد نال شهرة كمؤلف « وينزبرج ، أوهيو » . واقترح أندرسون على همنجواي أن يذهب إلى باريس فمكان مثالي لكاتب شاب طموح . وهناك يكون في صحبة جماعة الفنانين المغتربين في عاصمة النزعات العصرية التي تبحث عن أشكال جديدة من التعبير ، فيمكنه أن يتعلم كيف يكتب .

سُرَّ والدا همنجواي بفكرة زواج ابنهما ، فقد راقت لهما « هادلي » ؛ ولا شك أنهما اعتقدا أن ذلك الزواج سيجبره على أن يتغلب على ما كان يعوزه من تحمل المسئولية .

أبحر العروسان الجديدان إلى فرنسا في أواخر عام ١٩٢١ . ويتسلح همنجواي بالرسائل التكريمية التي قدمها له أندرسون إلى الأصدقاء البارزين من جماعة الفنانين المغتربين ؛ ومنهم جيرترود شتاين ، وإزرا باوند ، حيث زكاه أندرسون ككاتب غير عادي . وكان ذلك ثقة وتشجيعًا كبيرًا لكاتب

شاب لا يبلغ من العمر سوى اثنين وعشرين عاماً ، ولم يسبق أن نشر له أى كتاب .

أقام هيمنجواي في شقة رخيصة ، ولكنها لم تكن مريحة ، وتجول العروسان في باريس لاستكشافها ، ثم اتصل بجماعة الفنانين المغتربين .

أحب إرنست باريس . وبدأ يتعرف بالروائي والشاعر والناقد فورد مادوكس فورد ، وتطورت تلك العلاقة إلى معرفة شخصية وأدبية عاصفة . وقابل هيمنجوي أيضاً جيمس جويس ، [illegible] الأدب . وبعد أن طبع هيمنجوي مجلده الأول الصغير « ثلاث قصص وعشر قصائد » سعى سكوت فيتزجيرالد إلى الاتصال به . وتطور الأمر بينهما إلى صداقة تخللتها فترات من المناوشات والعراك وسوء التفهم .

وينضم « إزرا باوند » إلى أصدقاء همنجواي ؛ فقد كان دائماً على استعداد لمساندة صغار الكتاب ؛ وعمل على تبني الشاب هيمنجوي

خاض هيمنجواي كثيراً من المعارك الأدبية ؛ وأصبح ذلك نمطاً معتاداً لديه . واستمر ملازماً له طوال حياته ، وكان على أتم استعداد لمهاجمة عيوب ونقائص أصدقائه الأدباء ومواطن ضعفهم . وقدم مقالاً للنشر بإحدى المجلات التي يعمل بها « إزرا باوند » كمحرر أجنبي ، حيث سخر فيه من بوهيمية باوند الرومانتيكية . ولحسن الحظ لم ينشر ذلك المقال . ولم يكن يروق لهيمنجواي أسلوب الحياة البوهيمية ، وقاوم التطفل على الفن ، والتكلف الزائف في جماعة الفنانين المغتربين .

وهناك مصدر آخر لاتجاهات هيمنجوي الشخصية ، بعد اتخاذه شخصيات قصصه ورواياته من أناس يمكن تمييزهم . ولم يكن يخدعهم أو يجملهم في تصويره لهم .

قضى همنجواي في باريس عدة أعوام جاهداً ليصبح كاتباً .

وقد حاول همنجواي بأن يتخذ لقصصه الحديثة الأولى أسلوباً من قصص « وينزبرج : أوهايو » وهي مجموعة قصصية من تأليف أندرسون . وكانت الرسائل الواردة من المحررين الأمريكيين تشكو من أن قصص همنجواي لم تكن قصصاً بالمرة .

وأنتج همنجواي أيضاً صوراً انطباعية أدبية نثرية موجزة تمسك بالحدث في اللحظة المناسبة حين تظهر العناصر الجوهرية العاطفية . وبدأ جهداً مضنياً في العمل بأدواته الأساسية في فنه : كيف يكون صادقاً مع إيقاع اللغة المنطوقة ، وكيف يحذف أكبر قدر من الكلمات ، وكيف يصل إلى الانفعال المطلوب دون أن يخبر القارئ بطريقة مباشرة ما ينبغي أن يشعر به . ومن الواضح أن همنجواي ظل طوال حياته فناناً مجدداً .

وقد أتيحت له فرصة القيام بكثير من الأسفار بحكم اضطلاعه بمهمة صحفية في « التورنتو ستار » اليومية والأسبوعية . فغطى تقريراً عن تسوية الحرب التركية في العشرينات في كل من فرنسا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، ومنطقة البحر الأسود . وكان يمارس مع زوجته هادلي صيد السمك ، والتزحلق على الجليد ، ويقضي العطلات مرتحلاً معها إلى الأماكن التي تستحق المشاهدة . وفي الرحلة التي قام بها إلى إسبانيا مع بعض أصدقائه شاهد فيها مصارعة الثيران أثارت عنده بما فيه حياته .

حملت هادلي منه ، وقرر الزوجان أن يعودا إلى كندا حتى يولد طفلهما على أرض أمريكية . وقبيل الرحيل صدر لهمنجواي في عام ١٩٢٣ أول عمل من كتاباته في طبعة باريسية صغيرة بعنوان : « ثلاث قصص وعشر

قصائد » . وصحيح أن المجلد كان رقيقاً غير أنه كان شيئاً ذاتياً مدموغاً ، وانعكست روح هيمنجواي المعنوية . ولقد ولد طفله في كندا ، وكان ذكراً ، وعندما اشتد ساعده قليلاً وأصبح قادراً على تحمل السفر ، أبحر هيمنجواي وزوجته هادلي وطفلهما إلى باريس ثانية . وحينما كانوا في كندا كانت الصور الوصفية الأدبية القصيرة التي كان هيمنجواي قد كتبها في باريس ، قد أعيد نشرها في طبعة باريسية صغيرة تحت عنوان : « في زماننا » . وفي عام ١٩٢٤ ساعده ، حينئذ ، أوجدين ستيوارت ، الذي كان عضواً في جماعة الفنانين المغتربين في باريس ، على طبع القصص الثلاث التي يتضمنها مجلد « ثلاث قصص وعشر قصائد » ، والصور الوصفية الأدبية القصيرة التي يتضمنها مجلد « في زماننا » ، وأضيف إليها مجموعة كبيرة من القصص القصيرة ، ونشرت كلها في أمريكا لدى الناشرين بوني وليفرايت بعنوان : « في زماننا » . وكانت كل قصة منها يتقدمها إحدى الصور الوصفية الأدبية القصيرة التي كتبها في باريس . وقد شعر بعض النقاد بأنهم يجدون عدم الارتباط في الموضوع بين كل اثنين منها .

وقد استقبلت القصص القصيرة باحتفاء من النقاد الذين يتميزون بمزيد من حدة الملاحظة ، ويتمتعون بنفاذ البصيرة ، والتحموا وتعاطفوا مع المبدع ومن بينهم إدموند ويلسون ، وبول روزنفلد ، وألن تيت الذين أجمعوا على أن هناك موهبة أصيلة ناضجة قد ظهرت في الساحة الأدبية .

أما الرمز في قصص هيمنجواي فلا يدخل وعي القارئ كرمز أبداً ، ويبلغ هيمنجواي هدفاً مضاعفاً وجانبياً للمعنى باعتماده على المواقف والأشياء التي ستتطور من الداخل حتى تتسع وتصبح من المعاني المطلقة . إن طريقته أقرب إلى تلك الموجودة في أعمال الكتّاب قبل أن تصبح الرمزية حركة

رمز أدبي . وهناك رموز في أعمال هيمنجوي ، ولكنه ليس كاتباً رمزياً .

* * *

وفي عام ١٩٢٦ نشر له تشارلز سكريبنر رواية « سيول الربيع الجارفة » وهي تسخر من عمل شيروود أندرسون « السيول الجارفة » . وهي تتضمن منظور للحياة الحقيقية التي تدور كالدوامة حول يوجي جونسون ، وهو محارب قديم ، وسكريبس أونيل ، أحد رجال الأدب ، وهو حر غير مقيد كثير الترحال . وفي النهاية يجد السيول الجارفة تغمر سكريبس بحبه الحقيقي : وينتهي يوجي يعانق في الصباح بصحبة أمريكية من الهنود الحمر ، وهي من العراة تماماً .

وفي ذلك الوقت تحطم زواج همنجواي ، واتفق الطرفان أن يعملا على العيش في بيتين منفصلين . وفي يناير من عام ١٩٢٧ طلق همنجواي زوجته هادلي ريتشاردسون (وهي المرأة التي كان عليه أن يحبها بقية حياته ـ كما جاء ذلك في « عيد متحرك ») .

أحب إرنست بولين بفيفر ، وهي فتاة ثرية من أركانساس كان قد قابلها في باريس ، وتزوجها في مايو من عام ١٩٢٧ .

وحين نشرت رواية « الشمس تشرق أيضاً » في عام ١٩٢٦ جلبت لهيمنجوي شهرة واسعة ، وقد اعتبرها كثير من النقاد أفضل رواياته .

تعالج هذه الرواية حياة جماعة من الأمريكيين والإنجليز المغتربين في باريس بعد الحرب العظمى الأولى . وفي جو مرهق من الضجر والملل تدفعهم رغبة في التحرر من الزعم إلى الانغماس في المباهج والمسرات الشهوية التي يلفها الغموض والإبهام والتفاهة ، تراهم يقومون بجولات إلى الحانات

ويتذكرون ليلة يرقصون ويأكلون في الشراب ، ويغرقون في العلاقات العرضية ، وينطلق حديثهم خلال ذلك بالضحك والنكات ، ساخرين من الجراح التي ابتلتهم بها الحرب في أجسامهم ونفوسهم .

ويعطي ذلك همنجواي قبضة قوية على الواقع وحقيقته ، ويجعله ممثلاً صادقاً لنفسية البشرية في زمانه .

* * *

وحين عاد همنجواي من أوروبا مع زوجته « بولين بفيفر » في عام ١٩٢٨ استأجرا شقة في « كي وست » في فلوريدا لعدة أسابيع ، وكان ذلك بداية لارتباط طويل بمنطقة الكاريبي ، وجذبه في هذا العالم نوع جديد ألعاب البحار والصيد ، فهذه هناك من الأعماق . وجاء في كتاب كارلوس بيكر الذي ألفه عن الكاتب همنجواي كفنان ، والذي صدر ضمن مطبوعات جامعة برينستون في عام ١٩٥٢ أنه في فترة تشييع جنازة والده سأل والدته أن ترسل له المسدس كتذكار تاريخي . وقد استجابت لطلبه .

كان همنجواي يكتب رواية أخرى « وداعاً للسلاح » استلهمها من خبرته في الحرب العظمى الأولى . . والشيء يلاحظه أنه لا يحقق عملاً كبيراً ناجحاً لترسيخ المركز الذي ظفر به في العالم الأدبي بروايته « الشمس تشرق أيضاً » وبقصصه القصيرة .

كانت الحرب في إيطاليا تجربة أحدثت صدمة للشاب اليافع . وبعد مرور عشر سنوات على ذلك أخضعت انفعالاته ليصبح في قبضة الفن والصناعة كوحدة كاملة لتجربة همنجواي في إيطاليا ، فكتب روايته « وداعاً للسلاح » عن تلك الحرب .

وتعد رواية « وداعاً للسلاح » - بوصفها للإنسان في المعركة - من أفضل وأهم روايات الحرب ، ويجد هيمنجواي نصف الحرب كما تدار في عيني أحد المشاركين فيها ، شأنها شأن ستندال (وهو الاسم المستعار للروائي الفرنسي هنري بيل) في روايته « دير الشرتوز في بارما » (١٨٣٩) ، والروائي الأمريكي ستيفن كرين في روايته « شارة الشجاعة الحمراء » (١٨٩٥) . ويستطيع هيمنجواي أن يصور الارتباك والفوضى في المعركة كما عايشها كل جندي ويوصلها إلى القارئ . ولم يقدم هيمنجواي شيئاً شاملاً لأرض المعركة أو رسماً منظورياً للحرب ، كما لم يشغل نفسه بمتابعة تكتيكات القواد أو رجال السياسة .

إن هيمنجواي يرينا الحرب كارثة بالغة لا تطاق للإنسانية ، وهو لا يهتم ولا يركز على الأوجه الحماسية للحرب .

ونحن نجد الخطوط العريضة للأشكال والصور غير محددة بدقة ، فكأن هيمنجواي تأثيري في انطباعه البصري ، يجعل القارئ يركز على الصورة بتمازج الألوان بنفسه ، فهيمنجواي شديد البراعة في فنه ، إذ يعرف متى لا يقول أكثر مما قاله .

وتعد « وداعاً للسلاح » من أجمل قصص الحب في الأدب الأمريكي .

* * *

ونشر هيمنجواي بعد ذلك عملين كبيرين : « الموت بعد الظهر » في عام ١٩٣٢ و « تلال إفريقيا الخضراء » في عام ١٩٣٥ ، بالإضافة إلى قصص كثيرة عديدة رفيعة المستوى .

وكتاب « الموت بعد الظهر » يحكي عن تاريخ مصارعة الثيران في

إسبانيا، ويتضمن قاموساً لشرح مصطلحات المصارعة، ومختارات رائعة من الصور التي جمعها همنجواي الذي أصبح شديد الإعجاب بمصارعة الثيران. وقد كان همنجواي يعتقد أن مصارعة الثيران هي تعبير عميق عن الشعب الإسباني. فإن كتاب «الموت بعد الظهر» ليس مجرد كتاب عن مصارعة الثيران فحسب، بل إنه أيضاً تاريخ ثقافي؛ وكتاب رحلات عميق، وصوفي، أقرب إلى أغنية حب لإسبانيا.

وفي عام ١٩٣٣ قام همنجواي برحلة لقنص وصيد إلى شرق إفريقيا مع تشارلس تومسون، وهو من أصدقائه المقربين؛ وزميله في صيد الأسماك من «كي ويست». وصادفت تلك الرحلة نجاحاً كبيراً، وأحب همنجواي إفريقيا؛ ومن الجانب الأدبي ألهمته تلك الرحلة بكتابة كتابه «تلال إفريقيا الخضراء»، وكذلك بكتابة اثنين من أروع قصصه القصيرة «حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة» و«ثلوج كليمنجارو».

وفي عام ١٩٣٧ ظهرت له رواية «من معه، ومن ليس معه» وتقع أحداثها في «كوبا» و«كي ويست بفلوريدا» عن رجل قتل بعد أن أصبح مهرباً خارجاً عن القانون ليعول أسرته ويساعدها.

ونشرت له رواية «لمن تدق الأجراس» عام ١٩٤٠ التي تقع أحداثها إبان الحرب الأهلية الإسبانية؛ واستقاها من عمله كمراسل حربي لصحيفة اتحاد شمال أمريكا، حيث سافر إلى إسبانيا في عام ١٩٣٧؛ ومن هناك استوحى أيضاً مسرحيته «الطابور الخامس» التي نشرت عام ١٩٣٨.

وفي عام ١٩٤٠ طلق همنجواي زوجته بولين فيفر، وتزوج صحفية شابة تدعى «مارثا جيلهورن».

وعمل في الفترة من ١٩٤٢ حتى ١٩٤٥ مراسلاً حربياً في أوروبا ، وطار مع سلاح الجو الملكي ، وشارك في غزو نورماندي ، وانضم إلى فرقة المشاة .

وطلق « مارثا جيلهورن » في عام ١٩٤٥ وتزوج « ماري ويلش » التي قابلها في لندن في أثناء الحرب عام ١٩٤٦ . وكان سعيداً في حياته الزوجية مع تلك الزوجة الرابعة في الخمسينات .

وفي عام ١٩٤٨ يصل همنجواي إلى إيطاليا التي لم يزرها منذ عام ١٩٢٧ . ويتخذ من « البندقية » قاعدة له . ويقوم مع ماري برحلات بعيدة إلى شمال إيطاليا ، ويأخذها إلى أحد مشاهد في تجربته الحربية في عام ١٩١٨ .

وتصادف في مدينة « البندقية » مع الكثيرين من أرستوقراطيي إيطاليا ، وخاصة فتاة في التاسعة عشرة من عمرها تدعى : « أدريانا إيفانتشيش » . وكانت ثمرة تلك الزيارة رواية « عبر النهر وبين الأشجار » التي نشرت في عام ١٩٥٠ ، وبطلها الكولونيل الأمريكي « ريتشارد كانتويل » وهو في الخمسين من عمره ويعمل في سلاح المشاة الأمريكي ، ويشترك في الحربين العالميتين اللتين عرفت رحاهما في القرن العشرين ، حيث حارب كضابط شاب مع الجيش الإيطالي في الحرب العظمى الأولى ، وحارب حين تقدم به العمر مع الجيش الأمريكي في فرنسا وألمانيا في الحرب العظمى الثانية .

يعود الكولونيل « ريتشارد » المريض بالقلب — في أيامه الأخيرة قبل موته — إلى مدينة « البندقية » الأثيرة لديه ليرى حبيبته الفتاة الإيطالية الشابة « ريناتا » . إن الصفحات التي تحمل وصفاً للجسور ، والقنوات ، والمباني في البندقية ،

والعنيف ، فكانت من أروع ما كتب هيمنجواي ، غير أن الرواية قوبلت بفتور .

* * *

وفي عام ١٩٥٢ نشرت له رواية « العجوز والبحر » فلقيت ترحيب النقاد أيما ترحيب ، واعتبروا أن هيمنجواي قد عاد بها إلى ذروة قوته . وقد حصل بها هيمنجواي على جائزة بوليتزر لعام ١٩٥٣ . وكان ذلك مقدمة لفوزه بجائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٥٤ ، حيث جاء في تقرير اللجنة أن الجائزة منحت له لتفوقه وإتقانه العظيم للأسلوب في فن الرواية الحديثة ، كما يظهر ذلك بوضوح في روايته الأخيرة : « العجوز والبحر » .

ويرتكز بناء تلك الرواية ونسيجها على حدث واحد غير معقد في حياة صياد أسماك عجوز من « كوبا » يدعى « سانتياجو » . وتدور الرواية حول ذلك العجوز ، بالإضافة إلى الصبي « مانولين » المعجب به . وقد رسم هيمنجواي هاتين الشخصيتين بعمق . وكانت حبكة : « العجوز والبحر » تدور في تلافيف عقله منذ عام ١٩٣٦ . وحين تقدمت السن بهيمنجواي اكتشف ثروة جديدة في قصة ذلك الصياد العجوز .

لم يظفر « سانتياجو » بأية سمكة طوال أربعة وثمانين يوماً ، وقد راوده الأمل في ذلك اليوم بأن الحظ سيعود ويحقق له ثروة ، فراح يضرب بمجدافيه في الماء بنشاط ، خارجاً بمركبه من ميناء « هافانا » قبل أن تبزغ الشمس من خدرها ، فأوغل في البحر عاقداً العزم على الاصطياد في مكان بعيد لم يصل إليه من قبل ، وربما وراء المنطقة التي اعتاد هو وغيره من الصيادين كسب رزقهم فيها ، إنه ينشد اصطياد سمكة ضخمة ، وإذا تحقق ذلك فلن تدر عليه ربحاً وفيراً فحسب ، بل ستعيد إليه أيضاً كبرياءه كرجل .

تعلقت بخطافه سمكة ضخمة من نوع « المرلين » التي تمضي قُدُماً في البحر صوب الشمال والشرق وهي تسحب المركب وراءها ، ولا تصعد السمكة إلى سطح الماء ، ويستطيع « سانتياجو » من حركة المركب السريعة معرفة نوع السمكة التي تفر بها .

ثم يمضي يومان تصعد السمكة بعدهما إلى سطح الماء ، وتقفز خارجه في محاولة للتخلص من الخطاف وإلقائه بعيداً عن فمها .

ويدرك السمكة التعب في اليوم الثالث فتشرع في إدارة المركب حركة دائرية ، ويتمكن « سانتياجو » من جذب السمكة إلى أن تصبح قريبة جداً من المركب . وأخيراً حين تصبح في محاذاة المركب يطعنها العجوز بحربته ويقتلها . ولما كانت السمكة أطول من المركب كان لا بد من ربطها في الحافة العليا من جانب المركب توطئة لرحلة العودة إلى « هافانا » . ثم تجيء أسماك القرش جماعات وفرادى ، ورغم المحاولات العنيفة التي يبذلها العجوز تتمكن من تمزيق لحم السمكة . وحين يصل المركب إلى الشاطئ ويستقر به لا يبقى من السمكة سوى هيكلها العظمي . يخلع العجوز الصاري من مكانه ، ويطوي حوله الشراع ويربطه ثم يحمله على كتفه ، ويمضي إلى كوخه وهو يتمايل ويترنح . وهناك يتمدد فوق فراشه وينام .

وحين نتصدى لمناقشة رواية « العجوز والبحر » فإن أمراً مهماً لنا أن نعتبر « سانتياجو » هو هيمنجواي نفسه . ومع ذلك فالمنطق أن أسماك القرش قد تصبح نقاد هيمنجواي ، وتصير الرواية كلها تأكيداً للذات واستدراراً للعطف . أما إذا تراجعنا واعترفنا بأن « سانتياجو » هو جزء من التاريخ النفسي والروحي لهيمنجواي فإن هذا سيكون أمراً آخر . فقصة الصياد

العجوز تحكمه الرؤية المأساوية الناضجة لهيمنجواي وتؤكدها . فهي تسلم تماماً وتعترف بوجود الشر والألم والهزيمة والكوارث والقوى الغريبة التي يصعب تجنبها أو التنبؤ بها . وبرغم ذلك يؤمن هيمنجواي بقيم الشجاعة الكامنة في الجنس البشري ، وبالشراكة الجوهرية بين الإنسان والطبيعة . سانتياجو يزعم أنه يريد قتل السمكة لأنه يشعر نحوها بالإعجاب .. إنه رباط من الحب والاحترام بين خصمين جديرين بالاحترام .. إن الصراع بين العجوز والسمكة تجاوز مباراة عادلة بين اثنين من الشجعان بمهارتهم وأخلاقهم . وعندما تهاجم أسماك القرش السمكة يتدخل هنا عامل آخر شرير ، ثم يرجع اعتذار سانتياجو :

ـ إنني آسف لك أيتها السمكة ، لقد فسد كل شيء .

ربما لم يكن كل شيء قد فسد تماماً . فالسمكة والعجوز تعاركا بشرف ، غير أن هناك ما هو أكبر من ذلك بالنسبة للعالم ، إن الخصمين من الخاسرين معاً ، ولكنهما أيضاً من الرابحين معاً .

إن مبدأ الشر في الرواية يرتكز على مشاعر هيمنجواي التأثيرية الانطباعية أكثر من استناده إلى منطق فلسفي . إن البارجة البرتغالية حيوان من ذوات الأنابيب ، يطفو فوق الماء بواسطة مثانة جيلاتينية ، وتتدلى خلفه خيوط سامة مميتة ، فأسماها سانتياجو « بغي » . وسمك القرش شر أيضاً ، إنه يعني الخير بسوء مطلق وأنانية أو قسوة ، وبعد أن تحرمت السمكة من جزء اللحم الذي مزقه القرش وانتزعه منها ، عبّر سانتياجو عن شكوكه وحيرته إزاء ذلك القرش الذي قام بأول هجوم قائلاً :

ـ إنه إنسان الأسماك يعيش على الأسماك التي أعيش عليها أنا الآخر . وهو

ليس قادراً يقتات بالقناعة ، أو عجوز مشوّهة متحركة من تحت الطعام حتى بعض أسماك القرش ، إنه بطل نبيل ، ولا يهاب شيئاً .

وإذا كان ذلك القرش - من بعض الأوجه - مثل الصياد ، فالقدر لا يمكن وحده أن يعلن إحباط رغبة الإنسان .

وكثيراً ما توصف رواية « العجوز والبحر » بأنها تعبر أو تطمح إلى معنى أخلاقي أو ديني .

ويمد هيمنجواي اقتصاده المعتاد في الأسلوب إلى اقتصاد في البناء والمعالجة : إنه يعرّي المسائل الخارجية إلى أبعد حد . إن المظهر البدني الخارجي لسانتياجو مرسوم رسماً تخطيطياً أكثر منه لوحة مصورة ، والصفات الأخرى مرسومة بطريقة تبرز فيها الخطوط المحيطية .

وسانتياجو في معركته مع السمكة الضخمة رجل وحيد في البحر ، بيد أن علاقاته بالجنس البشري والتاريخ تتضح في الأرض ، فهناك في بداية القصة « مانولين » الذي منعه والداه من الإبحار معه « سانتياجو » خشية أن ينتقل سوء حظ الرجل العجوز ؛ والنحس الذي يلازمه إلى الصبي - وفي نهاية الرواية يصر الصبي على الانضمام ثانية إلى صيده متجاهلاً نصائح الأهل ، وحين كان العجوز يستعد للراحة بعد عودته من رحلته الخائبة الشاقة التي أوغل فيها داخل البحر ، يقول له الغلام :

- يجب أن تسترد عافيتك سريعاً فهناك الكثير الذي تستطيع أن تعلمه ، ويمكنك أن تعلمني كل شيء .

هذا الغلام الذي أحضر الطعام والدواء إلى سانتياجو لم يفقد قط إيمانه بمكانة سانتياجو ومنزلته الرفيعة كصياد وبطل .

وعادة ما يكون أبطال همنجواي محاربين أو مقاتلين ومغامرين . وفي رواياته الأخرى نجد امرأة تحب البطل ، في حين أننا هنا نجد صبياً يحب البطل العجوز ، وقد يرجع ذلك إلى أن همنجواي أصبح كهلاً عندما كتب رواية « العجوز والبحر » . ومع ذلك يمكننا أن نمضي إلى أبعد من ذلك ، ونعتبر أن الرباط الذي يربط مانولين بسانتياجو هو حلقة ربط بين الأجيال ، والأمل في استمرار الحياة ، وحاجة الكبير إلى الصغير ، والصغير إلى الكبير

كان العجوز سعيداً في زواجه ، وفوق جدران كوخه تعلق للرجل صورة ملونة للقلب المقدس ، وأخرى للعذراء ، تركتا بقايا صور تذكارية من زوجته التي غادرت الدنيا ، ولزمن مضى كانت هناك صورة فوتوغرافية لها ذات ألوان باهتة معلقة على الحائط ، غير أنه أزالها من فرط الحسرات ! لأنه كلما نظر إليها كانت تحمل إليه إحساساً بالوحدة والغربة الموحشة ، ووضعها على رف في ركن خلف قميصه النظيف ..

وسانتياجو علاقاته مع الماضي ، تاريخه الخاص ، ففي شبابه كان بطلاً قوياً : ففي إحدى مباريات القوة استطاع أن يثني ذراع منافسه الذي كان جباراً ذا قوة خرافية : وها هو ذا العجوز يحلم الآن بالأسود والسباع فوق شواطئ إفريقيا التي سبق أن شاهدها من فوق سطح إحدى السفن . ويحس الصبي شغفاً له حين يخبره الرجل العجوز بالحلم .

ويحتمل حلم السباع فوق الشاطئ مختلف التفسيرات والتأويلات على أوسع مدى .. فقد يكون حلم مغامرات ، أو طاقة وكبرياء لا حد لها ، أو حلم الكون والبشر ، أو سعادة الحياة ، إنها جنة فيها ينسى العالم ويمحي ، ولكن يمكن أن يرى فيها كل إنسان شيئاً خاصاً به .

وحين يقول العجوز إنه كان يجب ألا يتوغل بعيداً في البحر ، لا ينبغي أن نأخذ ذلك مأخذ الجد ، إذ أنه في المرة القادمة قد يتوغل إلى مدى أبعد .

وقد لا تكون « العجوز والبحر » أعظم روايات همنجواي ، ولكنها تمثل الذروة التي حققها بأسلوب تعبير برؤيته الإنسانية الحزينة

* * *

كانت رواية « العجوز والبحر » آخر أعمال همنجواي القصصية . وقد قضى الأعوام التسعة الأخيرة من حياته وهو يناضل في معركة خاسرة لا يمكن تجنبها ضد المرض والشيخوخة والانحدار العام في طاقته الإبداعية .

وقام برحلته الثانية إلى أفريقيا مع زوجته « ماري » في الفترة بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . وقد منحته سعادة بالغة . واصطحب معه « فيليب برسيفال » الذي كان همنجواي يصحبه قبل منذ عشرين عاماً مضت . وبدا أن همنجواي استعاد في تلك الرحلة حيويته وحماس أيام شبابه ، غير أن الخاتمة كانت خطيرة ، فقد تحطمت بهم طائرتان على التوالي في أوغندا في نهاية الرحلة ، وكاد يلقى حتفه هو وزوجته ، بل نشرت كثير من الصحف نبأ وفاته . وقد ساءت صحته بعد ذلك ، وكان يعاني من ارتفاع ضغط الدم ، واضطرابات خطيرة في الكبد ، والقلق ، واعتلال نفسي وجسمي مزمن بسبب تحطم الطائرتين ، وحياة مليئة بالحوادث تركته مرهقاً مهزوماً ، وقد انتشرت آثار الجروح والندب في جسده .

وفاز بجائزة نوبل عام ١٩٥٤ وكانت رواية « العجوز والبحر » ذات أثر حاسم في قرار لجنة الجائزة السويدية ، وقد أشادت اللجنة بإعجاب همنجواي بكل فرد يقاتل قتالاً جيداً في عالم واقعي يظلله العنف والموت .

وعمل همنجواي فيما بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٠ على فترات متقطعة ، حيث كتب ذكريات السنوات التي قضاها في باريس من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٦ ، ونُشرت بعنوان « عيد متحرك » في عام ١٩٦٤ بعد ثلاثة أعوام من وفاته ، وقد استعاد فيها سعادته وهو شاب بمهنته الجديدة ككاتب ، وحياته في باريس بمقاهيها وفقرها ومسراتها ، وزواجه . وتعكس سنوات تعلمه في باريس ، والشخصيات الأدبية التي قابلها ، حية في عقله ، في « عيد متحرك » كما سماها .

عانى همنجواي في السنين الأخيرة في حياته من تدهور جسدي وعقلي ، فقد نقص وزنه ، وارتفع ضغط دمه إلى درجة خطيرة ، وضعفت ذاكرته ، فلم يعد قادراً على دقة صياغة الأحداث التي يضمنها كتاباته . وكان من أكثر الأشياء التي تؤلمه بدء معاناته من الإحباط والاكتئاب النفسي الذي كان ينتابه في فترات عصيبة من عمره الخفي . وأظهر في عام ١٩٦٠ ميلاً إلى الانتحار ، فدخل « مايو كلينيك » في « مينيسوتا » للعلاج ، وغادرها عام ١٩٦١ متجهاً إلى « كيتشوم » ، ولم يلبث أن عاد إلى « مايو كلينيك » بعد شهور قلائل ، ثم سُمح له بالخروج ثانية ، برغم أن زوجته كانت متوجسة خيفة من ذلك ، وأنهى همنجواي حياته منتحراً في بيته بكيتشوم بإطلاق النار على نفسه من بندقية صيد بماسورة مزدوجة .

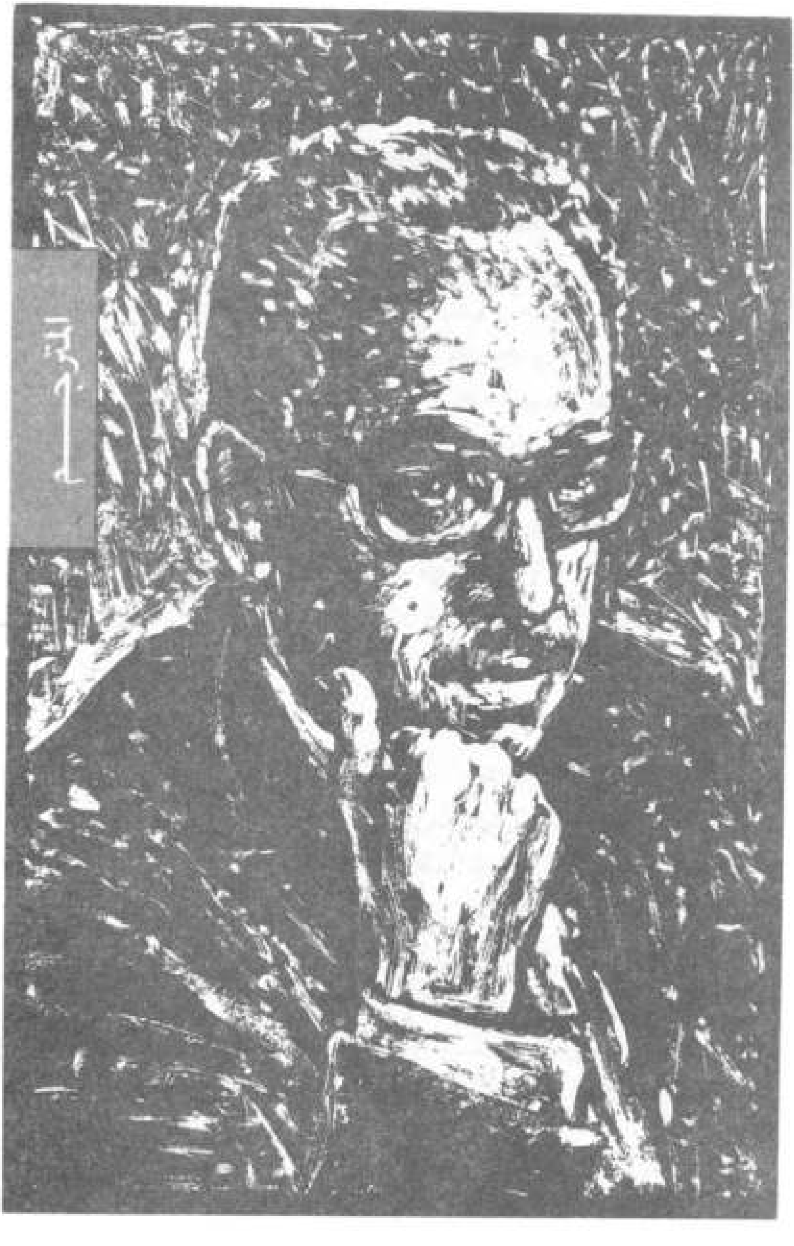

المترجم

الدكتور غبريال وهبة

نشر له ١٩ كتابا و ٦٤ قصة قصيرة و ٢٠٠ مقالا في النقد الأدبي والمسرحي بالصحف والمجلات بمصر وشقيقاتها العربيات . وهو عضو اتحاد الكتاب ، ونادي القصة ، وجمعية الأدباء ، ونقابة المهن التمثيلية (شعبة النقد) . ويعمل حاليا نائب رئيس تحرير مجلة عالم الفكر .

والدكتور غبريال وهبة حاصل على بكالوريوس كلية العلوم ، جامعة القاهرة - دبلوم دراسات عليا في التربية وعلم النفس - دبلوم إشراف فني (بعثة داخلية) بكلية التربية ، جامعة عين شمس - دبلوم في اللغة الإيطالية من معهد دانتي اليجييري - دبلوم الدراسات العليا في النقد الفني من المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون - ماجستير في النقد الفني ، أكاديمية الفنون - دكتوراه الفلسفة في الفنون من المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون .

كتب صدرت للمترجم :

١ - الكيمياء في خدمة المجتمع : لجنة البيان العربي ١٩٥٦ .

٢ - الطاقة النووية : لجنة البيان العربي ١٩٥٦ .

٣ - طرائف ومداعبات علمية : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ .

٤ - دنيا النجم - لجنة البيان العربي ١٩٥٨

٥ - الإصبع أو الزمن ينصرم : من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٨ .

٦ - سقوط باري : من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٦٩

٧ ـ الدوامة : الهيئة العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) ١٩٧٠ .
وهي الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

٨ ـ العاصفة : العدد ٢٩٩ من روايات الهلال ـ نوفمبر ١٩٧٣ .

٩ ـ ليال لا تنسى . العدد ٣٠٧ من روايات الهلال ـ مايو ١٩٧٥ .

١٠ ـ السحيق السحري ومسرحيات أخرى : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .

١١ ـ جسر شارع يعقوب : من سلسلة الإبداع العربي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٥ .

١٢ ـ دمشق والكوميديا الإلهية : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ .

١٣ ـ أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي : من الألف كتاب (الثاني) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٦ .

١٤ ـ الزوجة الأولى : من سلسلة الرواية العربية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٦

١٥ ـ مقامة الوصلة ـ صوت من الفضاء ـ مسرحيتان علميتان ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .

١٦ ـ دون كيشوت بين الوهم والحقيقة : من سلسلة دراسات أدبية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة) ١٩٨٩ .

١٧ ـ كاميلو خوسيه ثيلا : الفائز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٩
سلسلة المكتبة الثقافية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (وزارة الثقافة)
١٩٩٠ .

١٨ ـ العجوز والبحر ـ ترجمة ودراسة نقدية عن هيمنجواي .

كلمة إلى القارئ

الذين قرأوا "أبحاث فى الرواية" . هل قرأوا [illegible]
عن جدارة ؟ وهل قرأوا لروب جرييه موضوعية ؟
هذه السلسلة "روايات تجريبية" ..

نقدم ترجمة عن هذه الكتب [illegible] قبل أن نقدم ترجمة
أفضل روايات هؤلاء الكتاب وأشهرها ، ترجمة كاملة
وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب سهل عصري ، وتضم
كل ترجمة مقدمة تاريخية وافية عن الكاتب ، وتحليلية
دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته ، حتى
يجد القارئ [illegible] والدارس والأديب [illegible] ما يعمق ويفيد
وتلبي حاجته الثقافية ..

من هنا نطمع [illegible] أصحاب دور النشر
[illegible]
[illegible] والله ولي التوفيق

فتحى العشرى

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقى .. أندريه جيد
العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى
الأم الكبيرة ..جابرييل جارسيا ماركيز
صحراء الحب .. فرانسوا مورياك
شعب يوليو .. نادين جورديمر
أمير الذباب .. وليام جولدينج
أنطوانيت .. رومان رولان
الغريب ..ألبير كامى
أحلام الناى ..هيرمان هسّه
الأم .. جراتسيا ديليدا
ولم يقل كلمة .. هاينرش بل
مراعى الفردوس .. جون شتاينبك
مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف
رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك
الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

6 222006 301699